الفصل الأول

انتهى التمرد في لبنان وبدأت مسيرة الوفاق.
هذا كان العنوان الأبرز في الصحيفة اللبنانية التي وصلتنا ذلك اليوم. ما كدت أقرأ هذا العنوان حتى حضرت صورتها أمامي. حاولت قراءة التفاصيل وإذا بالصورة تتوضح أكثر فأكثر لتملأ صفحة الجريدة كلها. أغمضت عيني، فلاحقني وجهها. لم أعد أرى سواه، أصبح ذاكرتي بكاملها.
توقفت سيارة فخمة أمام كلية الآداب، ترجلت منها سيدة شقراء كالنور وبكامل أناقتها نظرت في كل الاتجاهات، لم تر أحداً، كنت وحدي في ذلك الوقت واقفاً في المدخل. ترددت ثم توجهت نحوى وسألت:
أهنا كلية الآداب؟
نعم قلت
أين قسم الفلسفة إذاً؟
في الطابق الثالث من هذا المبنى.
شكراً
وعادت إلى سيارتها واختفت. أما أنا فحرت بأمرها. ماذا تريد هذه الآنسة الأنيقة من قسم الفلسفة؟ مظهرها لا يدل على أنها من طلاب الجامعة اللبنانية، وعمرها لا يدل على أنها أستاذة، فماذا تريد.
أخافها منظري قالت لي لاحقاً ولهذا السبب لم تجسر على الصعود إلى القسم يومها مفضلة الهرب بسرعة من منظر أرعبها: شارع مقفر، أبنية موصدة، فقط رجل يرتدي الأسود من قبعته حتى حذائه مروراً بنظارتيه، واقف بين أعمدة المدخل كأنه تمثال لا يتحرك.
"سأعود إلى لبنان" قلتها بصوت عال. لكن زوجتي الأجنبية وأولادي لا يحبون الذهاب إلى بلد لم يسمعوا عنه إلا القتل والذبح والمجازر والحرب... "سأعود بمفردي ولو لفترة قصيرة".
عاد وجهها يطاردني حتى أن شعرها كان يلامس وجهي. أما زال شعرها كما كان مرفوعاً بكبرياء عن وجهها ومتدلياً خصلاً ذهبية على عنقها وظهرها؟
أغلقت باب غرفتي ورحت أبحث في أشيائي القديمة عن وجهها الذي رسمته مرة في باريس، كنا في ذلك الفندق المتواضع حين أتت من لبنان للتسجيل في الدكتوراه. كم كانت طموحة وصادقة مع ذاتها. بحثت طويلاً فلم أجد اللوحة، بعثرت كل لوحاتي على أرض الغرفة وفتشت كل الزوايا والرفوف والخزائن... لم أعثر عليها. "هل عثرت عليها زوجتي ومزقتها؟ ممكن، فللنساء أطوار غريبة..." "على كل حال قصة قديمة وانتهت. لن أفتح الموضوع مجدداً" قلت لذاتي. تركت أوراقي ولوحاتي على الأرض وعدت إلى الجريدة لأقرأ أخبار بلدي.
"صبيحة الثالث عشر من تشرين الأول، أغار الطيران على قصر بعبدا وبدأت المعركة لحسم أمر التمرد والتجأ إلى السفارة الفرنسية وأعلن بصوته استسلامه وحسم الأمر لصالح الشرعية بعد ساعات ثلاث...".
أما زلت تسكن الأشرفية وماذا فعلت في هذه الحرب الأخيرة؟ هل سافرت وهجرت البلد؟ لم أعد أسمع عنها شيئاً بعد فراقنا، فقط علمت منذ سنين أنها تدرّس في الجامعة اللبنانية.
بدأت الدروس ودخلنا قاعة المحاضرات. كانت الساعة الأولى مع المرحوم كمال الحاج. "برنامج السنة الفكر اللبناني" قال الأستاذ وشرع يبرر هذا الاختيار. فجأة فتح الباب ودخلت. عبقت القاعة برائحة العطر. لم تقل شيئاً وتوجهت إلى مقعد فارغ في الصف الأمامي. إنها كانت تفضل دائماً الجلوس في الصف الأمامي. توقف كمال الحاج عن الكلام نظر إليها: "ما اسمك" قال. "هبى"..
أجابت وباشرت بفتح دفترها ثم أخذت قلماً من حقيبتها وتأهبت للكتابة. أما الحاج فقد أطال النظر إليها، وبعد أن سجل اسمها تفحصها جيداً، ربما أعجبه هذا المنظر الأنيق الجميل غير المألوف بين صفوف طلاب الجامعة اللبنانية.

"مكبرة الصليب يا آنسة هبى" قال الحاج وهو ما زال ينظر إليها. لاحظتُ لاحقاً أن الصليب يا آنسة هبى" قال الحاج وهو ما زال ينظر إليها. لاحظت لاحقاً أن الصليب الفضي الذي كان يزين عنقها كان حقاً كبيراً.
"كل واحد صليبو عقدو يا أستاذ" أجابت بلهجة حاسمة.
صمت الحاج وساد السكوت لبرهة في القاعة ثم تابع الأستاذ ما بدأه عن الفكر اللبناني.
انتهت المحاضرة الأولى فلملمت أوراقها علّقت حقيبتها بكتفها ونزلت السلم بدون أن تكلم أحداً.
خرج الطلاب إلى الشرفة المطلة على الشارع العام، وتوجهت معهم، لمراقبة هذه الطالبة الجديدة.
كنا في السنة الثانية من الفلسفة، وفجأة أطلت علينا بدون أن نراها سابقاً. لكن علمنا فيما بعد أنها مجازة بعلم النفس ولهذا السبب أعفيت من السنة الأولى في الفلسفة. توجهت نحو سيارتها إياها، فتحت الباب بهدوء، رمت بأشيائها في الداخل، ركبت السيارة وذهبت إلى... لم يعلم أحد منا إلى أين.
"إنها متزوجة" قال أحد الرفاق "لقد رأيت المحبس في اصبعها"
تذكرت ابتسامتها حين قالت لي بعد أن أصبحنا حميمين، رميته في كرسي الحمام شديت السيفون واختفى نهائياً. كانت تجيبني عن المحبس الذي افتقدته يومها من اصبعها.
كانت حاسمة جداً. حين تنتهي من أمر تلغيه من حياتها وتباشر من جديد كأن شيئاً لم يكن.
لم استطع قراءة الجريدة. وجهها، فقط وجهها. انتفضت وهززت رأسي لأخرج من ذاكرتي. "مالي ولها لقد انتهت قصتنا منذ خمسة عشرة عاما".
خمسة عشر عاماً. بداية الحرب في لبنان. بقيت أنا في باريس وعادت وحدها تاركة طيفها يلازمني كلما عدت إلى ذاتي. لكن حربها مع ذاتها كانت قد بدأت قبل الحرب في لبنان.
كنت أنتظر مجيئها في أحد المقاهي في بيروت وتحديداً مقهى "الشى بول" على الروشة: "هي أم لا" " إنها سيارتها ولكن"... دخلت المقهى مبتسمة وكأنها تعلم ما يدور في ذهني، توجهت مباشرة إلى حيث كنت دون أن تتلفت حولها وجلست قبالتي.
ما بالك لا ترد السلام؟ كل ما تفكر فيه انتهى، ولدت من جديد. قالت.
كان أمامي شخص آخر: شعر قصير، وجه بلا مساحيق ولباس عادي جداً.
نعم لقد خلعت عني آخر قناع كان يزعجني والآن أشعر أنني ذاتي، الآن فقط امتلكت ذاتي نهائياً. أقنعتي الداخلية تخليت عنها منذ فترة، تعلم ذلك، فلماذا يفاجئك اقتلاع القناع الخارجي؟
الآن أراك، قلت، الآن أراك حقاً، إنك أجمل مما كنت أتصور، كانت عيناها صافيتين كالبلور، وجهها شفاف تقرأ فيه الاتزان والفرح والصدق، تحول إلى تحد هادئ، تحدي من ثقته بنفسه تفوق كل قوى العالم.
أتعلم أنني لم أعد أستطيع تحمل أي قناع، قالت. إنني أكتب الآن عن تحرير المرأة وكل كلمة أكتبها تلزمني لأني مقتنعة بها، لا أشعر بالقوة إلا حين أكون منسجمة مع ذاتي، كل خلل في هذا الانسجام يضعفني ولا أحب الضعف إطلاقاً. تصور غداً عند مناقشة أطروحتي حول تحرير المرأة لو بقيت محافظة على مظهري السابق المقنع. أأفضح الأقنعة في الكتابة وأحافظ عليها في الواقع؟ لا. كتابتي هي أنا بكل قناعاتي. فإما أن أقبل كما أنا أو أرفض.. سكتت ثم أكملت وكلاهما سيان عندي.
هل أحضرت ما تقدمين به رسالتك غداً سألتها.
لا، ما زال لدي الوقت الكافي لذلك لأن الأفكار كلها جاهزة في رأسي.
اكتبيها الآن
لم لا
أخذت ورقة وقلماً وبدأنا نفكر معاً وهي تكتب. كنت أساعدها في اختيار بعض الكلمات أو الجمل أو الأفكار وكانت توافقني على اختياري بلا تردد. كان الانسجام بيننا في ذلك الزمن شبه مطلق، وبالتالي ما الفرق بين أن أكتب أنا أو أن تكتب هي؟ فكلانا واحد.

امتلأت القاعة بالطلاب، فاقترح الأب جبر، الذي كان معيناً مع كمال الحاج للمناقشة، اقفال الباب. فتحت هي أوراقها وأخذت تقدم عملها، فاغتظت من تلعثمها وترددها في القراءة، ولكن سرعان ما تغير الموقف حين رمت الأوراق جانباً وأخذت تتكلم بدون قراءة.
تحولت إلى نمرة شرسة تدافع عن ولدها. دام النقاش طويلاً وكانت ترد على كل الأسئلة وتنقض النقد الموجه إليها وترده كأنها سيدة الموقف.
اسمحوا لنا قليلاً، نريد أن نتداول فيما بيننا قبل إعطاء النتيجة، قال الحاج. خرجنا وكنت أنتظر تلك اللحظة لأسألها عن سبب تلبكها في البداية. قالت، وقتها، وبهدوء من خرج منتصراً من معركة صعبة: "لم أستطع أن أقول غير قولي. فكلما كانت ترد كلمة أتذكر أنها منك كنت أتردد في قراءتها وأحاول إيجاد غيرها، فكان ما كان، لكن المهم النهاية".
في أدق اللحظات كانت تحاول أن تكون ذاتها، هل ما زالت على مواقفها؟ "تفضلوا" قال الحاج بعد حين.
دخلنا من جديد القاعة، فقال الحاج: "بعد التداول قررنا الأب جبر وأنا إعطاءك الشهادة بدرجة جيد جداً لا لقناعتنا بما كتبته لأننا غير موافقين عليه بالرغم من أن الدفاع كان جيداً ومنظقياً، ولكن لأملنا بأن الأيام ستساعدك على تدوير الزوايا".
لسنتين مضيتا بعدها، لم تكن قد تعلمت "تدوير الزوايا". حاولت المستحيل لاقناعها بأن علاقتي مع "انغرد" زوجي الحالية، لم تكن إلا نزوة وعلاقة عابرة...
شيء انكسر، أجابت، انتهى الأمر، لا تحاول أن تبني على أسس مرتجة... كانت صدمتها تفوق الوصف. لن أنسى انفجار تلك الساعة.
فتح الباب فجأة، دخلت "انغرد": " أما زلت تقرأ الجريدة؟، قالت ثم صرخت: "ما هذه الفوضى في الغرفة ماذا كنت تفعل؟"
- كنت أبحث عن بعض الأوراق التي...
- هل وجدتها؟ سألتني قبل أن أكمل.
نعم. قلتها لأطمئنها وأرتاح.
لكنها تابعت قد ظهر بعض من الارتياح على وجهها:

- عبث الأولاد مرة، منذ زمن طويل، بمحتويات هذه الغرفة ونثروا كل شيء على الأرض ومزقوا بعض الأوراق والأشياء القديمة، وعندما أعدت ترتيبها رميت ما كان قد تمزق ولم يعد بالإمكان إصلاحه و... ولانقاذ موقفها قلت:
- المهم أني وجدت ما كنت أبحث عنه، لا تقلقي فللأولاد حق التصرف بذاكرة الأهل كما يشاؤون، لا بأس.
- على كل، أجابت، أتيت لأقول لك أننا ننتظرك على الغداء فهيا، وانسحبت لا أعلم ما يدور في رأسها.
- يبدو أن الحرب انتهت في لبنان أو على الأقل بدأت تنتهي يا أولاد. كنت أتوجه إلى الأولاد لأسمع تعليق "انغرد" التي كانت، وأعلم ذلك، تفضل عدم انتهاء هذه الحرب حتى لا تطرح قضية العودة أبداً. فأتى جوابها بسرعة:
- أهذا ما قرأته في الصحف اليوم؟ كم مرة قرأت هذا الخبر خلال السنوات الماضية وظلت الحرب مستمرة وقد تستمر طويلاً حتى تنتهي قضية الشرق الأوسط بكاملها.
- ربما، قلت، لكني أشعر هذه المرة بأن شيئاً ما قد تغير ولا بد من زيارة قصيرة إلى الوطن و..
- لن أذهب لا أنا ولا الأولاد. صاحت قبل أن أنهي كلامي.

- أعلم ذلك جيداً. سأذهب بمفردي لوقت قصير وأعود إليكم فأنت تعلمين أن الاختيار بين الوطن والأولاد هو دائماً لصالح الأولاد... والزوجة بالنسبة لي. فلا داعي للقلق وللرفض المسبق لقضية غير مطروحة.

عدت إلى غرفتي. لماذا تمانع انغرد في العودة؟ لماذا تنتفض هكذا كلما فتحت هذه السيرة؟ هل تقرأ أفكاري؟ هل تعلم في لاوعيها أن لبنان لا يعني لي في لاوعيي إلا هبى! وهل الأمر صحيح؟.. لكن لماذا كلما فكرت بالعودة لا يحضر أمامي إلا وجهها؟ مسكينة انغرد، إنها على حق! لكن القصة انتهت، أنهاها طول الفراق، أنهاها وجود الأولاد، أنهاها الزمن المختلف! هل انتهت حقاً؟ إنها توقفت عندي منذ زمن بعيد، لم يبق منها إلا لحظة توقفها، ولكنها لحظة تعاودني كالكابوس المرتبك المتناقض، أهرب منه لأنساه، فيصمت لفترة ليعود من حيث لا أدري! لماذا العلاقة الحقيقية تتحول إلى كابوس حين تتوقف؟ ألأن التوقف تشويه؟ كنا كمرآتين صافيتين تتعاكسان كبداية الخلق!... سأعود لأحطم هذا الكابوس وألغيه من حياتي، سأعود لأضعه أمامي وأتفحصه جيداً وأنبش كل خفاياه. ليتني أجدها خارجة لأرتاح ولو على حسابي! سأعود... سأعود لأراها، سأعود لأرى ماذا حل بها وأين هي الآن!

الفصل الثاني

هبطت الطائرة في مطار بيروت. وقفت بسرعة وتأهبت للخروج، فاصطف الركاب أمامي وأخذنا نتقدم ببطء نحو الباب، لحظات تمطت حتى حسبتها دهراً.

وأخيراً تنشقت هواء بيروت الرطب. ما زال طقس لبنان دافئاً. سماء صافية ونسيم ينعش القلب. هبطت سلم الطائرة بهدوء أتلفت إلى كل الاتجاهات كأني أريد، بلحظة واحدة، أن أرى كل لبنان.

- "بسرعة بسرعة". صرخ أحد المسؤولين في أسفل السلم، كان عسكرياً وبيده سلاح. أسرعت وصعدنا الأوتوبيس الذي نقلنا إلى غرفة الاستقبال. عجقة. عجقة وفوضى. تبعت الصف الذي تكون أمامي لختم جوازات السفر عند الأمن العام. أيضاً كانت المسيرة بطيئة حالها في كل مطارات العالم. لكن سرعان ما أخذ يفلت من الصف أفراد توجهون إلى مكان آخر ويمرون بسرعة:
- أما زالت الوسائط والفوضى. بسيطة. بلد عاش على هذه الفوضى مدة سنين طويلة لا يصطلح بأسبوعين فقط، قلتها لنفسي، وثابرت على التقدم حتى أتى دوري وختمت أوراقي. فتوجهت بعدها حيث تجمع الناس لتسلم الحقائب. لم يطل انتظاري. حملت حقيبتي، فتراكض الحمالة لمساعدتي.
- "هل معك سيارة؟ هل ينتظرك أحد في الخارج؟ أنا أدبر لك تكسي بسعر معقول..." كان كل يصيح.

لم أرد على احد وسرت نحو الجمارك، فتشت حقيبتي وها أنا في باحة المطار. كان جمع غفير، كل يترقب ظهور من ينتظر.

"لا ينتظرني أحد فلماذا أتمهل. "تكسي". صرخت. لكن إلى أين سأذهب؟

تقدمت سيارة صفراء، ترجل منها السائق، أخذ أمتعتي، وضعها في مؤخرة السيارة، فتحت الباب الخلفي ودخلت. عاد السائق إلى مقعده.

- إلى أين يا أستاذ؟

ترددت قليلاً ثم أجبت : إلى شارع الحمراء و... هل تعرف فندقاً أسعاره معقولة في شارع الحمراء أو في جواره؟

- أليس عندك بيت في بيروت؟
- لا، قلتها شارداً
- أوصلك إلى حيث تشاء في لبنان، فقد فتحت كل المعابر، لم يبق خطر على أحد في التجول ساعة يشاء في كل المناطق.

قاطعته بسرعة: "بيتي في الجبل، لكن لدي بعض الأشغال في بيروت أريد أن أنتهي، خذني إلى أي فندق تعرفه. كم أجرة التكسي إلى شارع الحمراء؟"

- عشرون ألف ليرة فقط.
- وكم يساوي الدولار في لبنان؟
- بأرض السبعماية
- هل انخفض بهذه السرعة؟
- هذا البلد عجيب غريب. حين يتأزم الوضع يصعد الدولار كالصاروخ حتى أنك لا تعود تستطيع أن تلحق به وترتفع الأسعار بشكل جنوني، وحين تروق، يقشط بسرعة، وخود على خراب بيوت. الله وكيلك متل المنشار بالطالع والنازل بينهش فينا؛ وقهقه كأنه يروي نكتة. ثم سألني : "هل لك زمن طويل خارج البلد؟"
- لا كم شهر، قلتها كي أسكته على الاسترسال بإخباري ما أريد أن أكتشفه بنفسي.

زحمة سير خانقة والسيارات تتقدم ببطء مميت.

- م هذه العجقة؟

- الحاجز، لكنه، كما تعلم، لا يفتش، وضع فقط لعرقلة السير، أجاب.

كدت أصرخ فتمالكت أعصابي، هذه المنطقة الكوكودي، يا إلهي ما هذا الذي حصل. كانت مرتعاً للقاءاتنا، نأتيها بمفردنا أو مع الأصحاب. كانت تعج بالناس وبالازدهار وبالأولاد وبخاصة أيام الآحاد. فما هذا الركام، ما هذه الرمال، من أين أتت؟

قطعنا الحاجز، وصلنا منطقة المدينة الرياضية. لم أر إلا الخراب من كل صوب، خراباً تعج بقربه الحياة كأنها أوكار نمل، أو كأنه يوم حشر والناس خارجه من قبورها.

محزنة بيروت حتى انقطاع النفس!

عاد وجهها ولكنه وجه أرعبني؛ انعكست عليها كل انطباعاتي الحزينة. لا، لا أود رويتها إن كانت هكذا، سأحتفظ بالصورة المتألقة، سأسأل عن حالها قبل لقائها. ولكن هل سألقاها وكيف؟ وأين؟

توقفت السيارة في أحد الزواريب المتفرعة من شارع الحمراء وقال السائق:

- صاحب هذا النزل ابن حلال، لا يغلي الأسعار.

ترك السيارة ودخل وحده إلى المكان تكلم بسرعة مع شخص هناك ثم ناداني: "ادخل فلقد أمنت لك غرفة هنا".

دفعت له أجرة سيارته ودخلت ما أسماه السائق نزلاً. رحب بي الشخص في الداخل وقال : "الغرفة رقم عشرة في الطابق الخامس، تفضل"، وتوجه نحو السلم. لم أقل كلمة واحدة لقد أدركت أن لا كهرباء في بيروت لأن أصوات المولدات تصم الآذان.

استلقيت على السرير. كان رخواً كسرير فندق باريس حين أتت للمرة الأولى وتمددت بجانبي. قبلتها كمن يرتشف الحياة من ثغرها. كنا وحيدين نملأ العالم كله. التقينا بعد أن كدت أفقد الأمل من مجيئها. ذهبت إلى مطار "أورلي" في الوقت المحدد لوصول طائرة بيرون. انتظرت فلم تأت. سأل عن اسمها بين الركاب. "لا يوجد هذا الاسم" قيل لي. لم أقطع الأمل من مجيئها على أي طائرة أخرى. أتت طائرة دمشق. لا أحد. أتت طائرة عمان. لا أحد. وصلت كل الطائرات الآتية من العالم العربي. لا أحد. شعرت بانهزامي وشتمت باريس والساعة التي أرسلتني فيها الجامعة اللبنانية لأكمل دراستي فيها. هم على وجهي وطفت في كل شوارع المدينة علني أرى وجهها أو من يعرف سبب عدم مجيئها.

أمضيت عشرة أيام على هذه الحال قبل أن تصلني برقية منها أعادت الروح إلى جسدي: "أصل غدا". قرأت. هل صحيح أم أن مأساتي ستتكرر؟ لا، فهذه المرة سأعود إلى بيروت لمعرفة ماذا يجري.

كنت في مطار "أورلي" قبل وقت وصول الطائرة بساعات. لا أستطيع الجلوس. أتمشى في قاعة الاستقبال حتى تعبت ورفضت الجلوس. اتكأت على الحائط شارداً. هي. لم أتحرك. تقدمت، لم أتحرك؛ خلت نفسي في حلم يقظة. رفعت بيدها ملوحة علها تشد انتباهي، تحركت ببطء كمن يخاف السير. وصلت.

- عمر، ما بالك، ألم ترني؟

تعانقنا

- أحقاً جئت. كنت أهيء نفسي لخيبة ثانية فلماذا...

لم أكمل سؤالي حين أجابت:

- معركة جديدة كان علي خوضها قبل سفري... منعت من السفر يومها وأوقفوني في مطار بيروت بحجة أنني لا أملك أذناً من زوجي بالسفر خارج البلاد. فعدت من حيث أتيت وحاولنا تدبير الأمور وهذا ما استوجب التأخير.
- هل أعطاك الإذن؟

- لا، فأنا بحلٍ من هذا القيد بعد أن أصبح بيننا دعوى طلاق، لكن كان علي إثبات هذه الدعوى لدى المراجع المختصة. المهم انتهت المعركة بالنصر قالتها فرحة، وأنت هل استقررت وأين؟
- لم أجد غرفة لا في البيت اللبناني ولا في أي مكان مخصص للطلاب. وصلت متأخراً إلى باريس وهذه الأمور تدبر قبل شهور. أسكن الآن في غرفة صغيرة في أوتيل.. حيث سنذهب الآن.

لم أنم ليلتها، ليس فرحاً بل تهيباً. انشلت عندي كل رغبة جنسية. كنت أشعر بالرهبة أمام جسدها تماماً كما كانت بلا موضوع أمام صفحة بيضاء أو كرسام هجر الرسم طويلاً وفجأة وجد نفسه أمام لوحة بيضاء. ضحكت يومها وقالت: ألا يكفي أننا معاً وسنبقى معاً؟ كانت تقرأني ككتاب مفتوح وكنت أتحسس دبيب الدم في عروقها. لم يكن بيننا فسحة للتساؤل.

مساكين، أهل بيروت، كيف يتحملون هذه الأصوات؟ ماذا حل بأعصابهم. ملأت أذني بالقطن. لا فائدة. كأنك في جحيم. ثم فجأة هدأت الضجة وعم السكون كأنه سكون الموت. ماذا حدث؟ توقفت المولدات. نظرت إلى ساعتي، كانت تشير إلى منتصف الليل. إذا هذا دوام المولدات في بيروت. توجهت إلى نافذة الغرفة، كل المدينة غارقة بالظلمة ما عدا بعض الأضواء المنتشرة هنا وهناك. نزلت إلى الشارع، مقفر تماماً لا مقاهي ولا محلات ولا ناس. أين تلك الأيام التي كان فيها هذا الشارع لا ينام. سرت قليلاً علني أجد أي شيء. فراغ تام. فقط أكوام النفايات وكلاب شاردة. أولاد الكلاب ماذا فعلوا ببيروت.

صعدت إلى غرفتي يملؤني الخوف لكن النوم لم يأت. أين أجدها، من سأسأل عنها. ليس لي إلا الجامعة اللبنانية. فإن لم أجدها هناك فسأجد أحد زملائها عله يخبرني عنها. وإذا كانت قد هاجرت؟ أعود غداً. لا تطاق الحياة عنا.

- تركت بيروت ولا نعرف عنوانها، فقط لدينا رقم الهاتف عندها، ولكن أسأل الدكتور عيسى فهو صديق لها ويمكن أن يعرف عنوانها. قال لي أحدهم في قسم الفلسفة.

قصدت بيت ذلك الرجل الذي تعرفت عليه سابقاً في باريس، وعرّفته بأني صديق "لهبى" وأريد رؤيتها. فأعطاني العنوان بكل هدوء وقال : "الخطوط مقطوعة بين وبيروت ومنطقتها وإلا كنا تكلمنا معها من هنا".

- لا بأس سأتدبر الأمر، قلت وفرحت لانقطاع خطوط الهاتف. لم أكن أعرف ما هي ردة فعلها، ومهما كانت فأفضل أن تكون بين وبينها وليس أمام أحد أو على مسمع أحد.

أخبرني قليلاً عن حياته وأخبرته بدوري عن حياتي وأولادي وزوجتي وعملي. شربنا القهوة.

- هل تعرفها جيداً؟
- كنت أعرفها جيداً، أجبت، فكيف حالها الآن.
- جيدة، ولكن لست أدري إن جرفتها الحياة فاستسلمت. هذا هو انطباعي عنها، على كل ليس عند أحد منا الآن حيل على شيء، تأتي الأمور فنتقبلها كما هي وننتظر... قالها بلا مبالاة تشبه الاحباط لا بل اليأس.

تألمت لقوله، فتابع كلامه وشردت أفكر فيها. هل سأجدها امرأة منكسرة مترهلة؟ لا، أفضل أن لا أراها وأكتفي بالذاكرة عنها وبصورتها المشرقة القوية المتحدية. ثم سمعته يقول؟

... أما في الحقيقة فلست أدري ماذا تفعل الآن أنا لم أراها منذ مدة طويلة. كنا سابقاً نلتقي ونتحدث بأشياء كثيرة. أما الظروف الحالية ففرقت ما بين الأصحاب ولم نعد نلتقي إلا لأوقات قصيرة بعدها يذهب كل منا في سبيله... على كل أنها صديقة حميمة لي رغم ما بعد الزمن بيننا.

- شكراً على القهوة، أستأذن الآن وآمل أن نلتقي ثانية قبل سفري.

- طبعاً، إذا أردت أن تراني فأنا موجود في مقهى...، على شاطئ البحر في كل مساء حتى الساعة الثامنة. هناك يتجمع الأصحاب في هذه الأيام. سلم على هبى إن زرتها وقل لها أننا ننتظرها.

الآن عندي عنوانها ورقم هاتفها. هل أذهب مباشرة أم أكلمها أولاً؟ ما المشكلة؟ لقد تفارقنا أصدقاء. هل من الممكن أن لا تستقبلني؟ لا أظن ذلك مهما بلغ بها التغير والتبدل، حتى ولو أصبحت امرأة عادية جداً فهي لا ترفض أن تراني. لماذا أتهيب من رويتها هكذا. أشعور بالذنب. لا، ماذا فعلت معها؟ لقد تفاهمنا قبل فراقنا وبالنهاية هي التي حسمت الأمر. يا إلهي كم كانت صافية وكلية!
وصلت إلى ساحة المدينة. دخلت أول محل وسألت
- هل من هاتف لديكم؟
- كل الخطوط مقطوعة يا أستاذ. إننا نغرق في الظلمة منذ أسبوع ونعيش بلا ماء ولا هاتف ولا...

لم أعد أسمع ما أكمل به كلامه وقاطعته:
- شكراً. وخرجت مقرراً أن أذهب إليها مهما كان الأمر. إن لم أجدها أترك ورقة على الباب وأعود ثانية. فتحت باب التكسي وأعطيت السائق العنوان بدون أي كلام أو سلام.
- نعم، أجاب، أعرف هذا العنوان. خمسة آلاف ليرة
- كما تريد أجبت وسكتنا

توجهت السيارة صعوداً. طريق جميلة، منطقة كأنها نجت من تدمير الحرب القاسية. فقط بعض الخراب القليل. حديقة عامة بعدها انعطفت السيارة شمالاً وأخذت طريقاً هابطة كأنها تؤدي إلى واد. أشار السائق بأصبعه إلى الأمام: "هذه هي البناية. لقد وصلنا". وبأقل من دقيقة توقفت السيارة بدون أن أقول شيئاً دفعت للسائق المال وأغلقت الباب. دور سيارته وعاد صعوداً.
مكان جميل وهادئ، جداً في قلب حرج من الصنوبر والزيتون. بناية كبيرة تزين كل شرفاتها الأزهار، مدخلها ساحات مزروعة بالورد. تخال نفسك في ريف أوروبي.
إنها في الطابق الأخير. نظرت إلى فوق. الستائر مرفوعة. إنها هنا لكن النوافذ الزجاجية مغلقة. ربما لا تكون هنا. أخذت نفساً طويلاً وتهيأت لصعود السلم... أخيراً وصلت. وقفت قليلا كي أستعيد أنفاسي. اسمها على الباب. إذا وصلت. مضت دقائق أفكر في ماذا أفعل وكيف أتصرف. ثم قررت: جئت لأراها وأنا جاهز لتقبل كل النتائج.
طرقت الباب بقوة للتدليل على الثقة بالنفس وانتظرت.

الفصل الثالث

فتح الباب. هي!

قرأت الدهشة في عينيها. لكن سرعان ما تمالكت ذاتها وقالت: "أنت؟". ثم قطبت حاجبيها وأغمضت عينيها كأنها تريد أن تتأكد مما ترى. شعرها مرفوع إلى أعلى ومربوط بشريطة سوداء. ترتدي قميصاً أسود وبنطلوناً ملوناً. الباب نصف مفتوح تماماً على قد جسدها.

فتحت عينيها وانغلق وجهها كالقبر بالرغم من الابتسامة التي لاحت عليه وانطفأت بسرعة.

- هل ما زلت حيا؟ قال وأكملت فتح الباب: "تفضل يا..."

لم تلفظ اسمي هل نسيته؟ لا، أنا متأكد. هل تناسته؟ ربما! ولكن لماذا؟ لم يكن لدي متسع من الوقت للتحليل. دخلت وراءها. جو بيتها دافئ وألوانه مريحة، أشياؤه كثيرة لكنها مصففة بدقة.

"تفضل اجلس" قالت وابتسمت بشكل واضح وكأنها تريد إخراجي من تلبكي الظاهر.

جلست وأخذت مكاناً لها قرب طاولة الهاتف. نظرت إلي بصمت ثم قالت بصوت منخفض:

- لقد كسرتها من زمن بعيد.

فرحت لأنها تكلمت. فلتبدأ بما تشاء. كل شيء أهون من هذا الصمت.

أعرف ذلك، أجبت، أما أنا فقد ضاعت مني.

أعرف ذلك أيضاً، أجابت، جرفها نهر السان في باريس. حظها كان أفضل من التي رميت بها أنا على مكب النورماندي. كانت نذير شؤم. ما كادت تتحطم حتى أصبحت كل نثرة منها تعكس جثة من ضحايا الحرب الكثيرة.

فهمت مدى الأسى عندها. كدت أختنق. لم أعد أجد كلمة واحدة. تركت الموضوع معلقاً وحاولت أن أنقلها إلى موضوع آخر:

- بيتك جميل وموقعه هادئ جداً. أما زلت ترسمين؟ وبدون أن أنتظر الجواب وقفت وأخذت أنظر إلى اللوحات التي تملأ كل الجدران. أعرف الكثير منها. لكن ما شد انتباهي هو لوحة باب مغلق. باب عتيق بلا لون. فقط هذا الباب ورصيف ضيق مقفر. أعرف هذه اللوحة لكنها استوقفتني. لاحظت ذلك وقالت:
- ألم تذكر هذه اللوحة؟ فهي أيضاً من أيام العز.
- ولكنها الآن أصبحت أكثر تعبيراً. أجبت.
- إنها لم تتغير، فقط الأشياء من حولها تغيرت. فهي إياها، باب موصد على كائن أرعبه الفراغ الخارجي ففضل العزلة في داخل ذاته التي كانت وما زالت محدد وجود كل العالم.

أعجبني تكابرها وقلت في نفسي: "لم تنكسر". ما زالت صامدة بالرغم من الخيبة الظاهرة على قساوة وجهها وانغلاقه.

ثم وقفت وقالت: "تعال أنظر كم أن لبنان جميل". فتحت باب الشرفة وخرجت فتبعتها. استندنا إلى درابزين الشرفة وصمتنا. منظر رائع، جبل وواد وبحر دفعه واحدة.

- أظن أن هذا الوادي كان مجرى نهر قديم. قلت
- ربما لكن الأشياء في تغير مستمر حتى الأنهر تجف. توقفت للحظة وأردفت: "لا، لا أظنها تجف إنها تغير مجراها، كل انخفاض يغويها فتنجذب إليه مسحورة. هذا قدر من لا شكل له إلا شكل الإناء الذي يحتويه... لم أجب، لكنني قلت.
- كل تلال لبنان تحتلها الأديرة، فما هو هذا الدير إلى اليمين؟ كان ديراً كبيراً رابضاً كالقلعة على تلة قرب بيتها.
- ألم تعد تعرف لبنان؟ فهذا دير بكركي.
- آه صحيح! لكن كنا نأتيه من طريق أخرى.
- على كل ليس من طريق إلى بكركي من هنا سوى الفضاء وهذه متعة النظر أو ربما مأساته، فهو ليس بحاجة لطرقات معبدة، يتجول حيثما يشاء هازئاً من عجز صاحبه.

- هل ضرب اليباس أشجار الحرج تحت بكركي. ما هذه الفجوات الفارغة وكأنها محروقة؟ سألت.
- صحيح إنك لا تعلم بما حدث، قالتها ضاحكة. إنها آثار القصف على محيط بكركي. ألم تسمع هذه العبارة سابقاً في الإذاعات : "قصف على ... وعلى محيط بكركي". ألم تر أثر الحرائق. إنه يباس غير طبيعي ناتج عن العنف والبغض والكراهية وحب السلطة. أما الأرض فصدرها واسع ورحب وتظل تنبت شجراً رغم أنف كل المجرمين. والآن هل تشرب القهوة هنا أم ندخل؟
- ندخل، فأنا جئت لأراك وليس للنزهة في الطبيعة. إنه حقاً منظر جميل لكن كل لبنان جميل وما أراه من هنا أستطيع أن أراه أو أرى مثله أو أجمل منه في أمكنى أخرى.

عدت إلى مكاني ودخلت إلى المطبخ. بعد لحظات نادت من الداخل: "كيف تشرب القهوة يا..." مرة ثانية لم تلفظ إسمي.
- "مرة كما تعلمين"
- القهوة المرة من ثوابتك إذاً. قالتها ضاحكة.

ثم أطلت وبيدها صينية عليها ركوة وفنجانان. كما تركتها. لا تسكب القهوة فهي تأتي بالركوة كما هي وتظل تسكب منها وتزيد في الفناجين حتى تفرغ نهائياً.
أخذت مكانها. وضعت الصينية على الطاولة. سكبت فنجاناً وقالت : "تفضل" ثم تلفتت في كل الاتجاهات تابعت:
- ليس عندي إلا هذا الصنف من السجائر. ماذا تدخن؟
- أوقفت السيجارة منذ سنة، فلا أدخن الآن...
- لماذا أوقفتها؟ ألسبب معين؟
- لا، ولكن يبدو أنه من الأفضل بعد عمر معين أن نوقف هذه العادة المضرة، لماذا لا توقفينها أنت؟
- ما عمرك الآن قالت بسخرية ضاحكة.

إنها تعرف جيداً عمري فلماذا السؤال؟
- تعرفين ذلك، قلت بكل برودة.
- لا، منذ خمسة عشر عاماً عمرك كان مثل عمري. أما الآن فلا أعلم بالحقيقة ما عدت أعرف.
- وحتى اسمي ما عدت تعرفينه. قلت مازحا.
- أنا أعرفه جيداً ولكن أظن أنك أنت نسيته. ولهذا السبب لم ألفظه أمامك كي لا تظن أني أخاطب سواك.

فهمت ماذا تقصد. خمسة عشر عاماً وأنا أنادي "أومار" بدل عمر.
فأجبتها:
- شوه اسمي. ويا ليته وحده الذي شوه. فكل وجودي شوه وما عودتي إلى لبنان إلا لأسترد بعضاً منه ولأستعيد اسمي ولو لفترة قصيرة. فلا تزيدي على قلبي. أرجوك أخبريني عن حالك أنت وماذا فعلت بك الحرب في لبنان.
- الحرب، أجابت، لم تغير اسمي وما زلت أدخن. أما وجودي! سكتت وسرحت نظرها بعيداً.

كنا يومها في مقهى مروش على شاطئ خلدة وكان الطقس جميلاً في أوائل الربيع. اقترحنا يومها على كمال الحاج أن يعطينا الدرس خارج الجامعة فقبل وتجمعنا حول طاولة كبيرة وشرح الحاج

بالحديث. كان محدثاً لبقاً، ثم التفت إلى هبى وقال: " هبى الآن خارج المياه الإقليمية". كانت شاردة تنظر إلى البعيد.
كيف قتل كمال الحاج سألتها.

- فوجئت بالسؤال ثم ابتسمت وكأنها علمت ماذا يدور في رأسي.

وقالت:

- أتى أشخاص يعرفهم إلى بيته فاستقبلهم كعادته مرحبا، ثم خرجوا معه لقضية ما، بعدها وجد مقتولاً على مقربة من مفرق بيته. هذا ما أخبرتني به زوجته حين صادفتها مرة بعد ذلك.
- ألم تعرف من هم القتلة؟
- تظن أن القضية لها علاقة بالجامعة والأساتذة لكنها لم تفصح عن شيء محدد.
- كيف حال الجامعة؟ أظنها تغيرت كثيرا.
- كل شيء في الجامعة تغير وهي بذلك ابنة هذا البلد. فكيف تريدها أن لا تتغير ولم يبق شيء فيه على ما كان. أولاً دخلها طلاب كثر من حملة الإفادات، مما جعل المستوى يتدنى، ثم إن الأساتذة لا أدري، حتى أن الألفة فيما بين الأساتذة فقدت ودب بينهم العداء حيث أن كل واحد منهم وكما كل فرد في هذا البلد التجأ إلى طائفته أو عشيرته وأخذ يطعن الآخر من موقعه الجديد هذا.

سكتت لحظة ثم تابعت:

- كنت أظن أن أستاذ الجامعة قادر على فهم الأشياء وبالتالي قادر على التعالي عن الصغائر التي تغرق فيها العامة أو الأشخاص العاديون الذي ينجرون وراء زعيم أو وراء قائد أو وراء طائفة بشكل أعمى. لكن ويا للأسف كنت على خطأ، وتوضح خطأي بشكل أكيد حين دخلت مرة مباشرة في قضية معينة مع أفراد الهيئة التعليمية عندنا في القسم. كدت "أتقيأ" من تصرفاتهم التي إن دلت على شيء لا تدل إلا على ضعف في الشخصية وعلى تعصب أعمى لا يوازيه تعصب آخر شخص أتى من أكثر المناطق تأخراً، ليس في لبنان فحسب بل في العالم كله. لكن هذا الحادث لم يوح لي إلا بالقرف والشفقة على الذين دبروه لأنهم أظهروا حقاً عن مواقف لا تليق حتى بالأطفال الصغار.
- وقبل أن تكمل إفراغ قرفها سألت: "هل يحق لي أن أعرف ماذا حدث؟"
- إنها قصة بسيطة في الوقت عينه معبرة جداً ليس عن وضع الجامعة فحسب بل عن وضع لبنان بكامله وقتها. تعلم أن الأقسام في الجامعة تنتخب رئيساً لها في كل سنة كل سنتين، ليس متأكدة من المدة تماماً. تصور أن الأكثرية في القسم عندنا ارتأت أن تنتخبني أنا لهذا "المركز". قبلت بكل طيبة قلب بالرغم من ترددي ولاعتقادي أن الأمر لا يستحق الرفض ولا التلهف على القبول، وما كاد الأمر ينتهي حتى جن جنون الفريق الآخر المعارض وأقام القيامة ولم يقعدها إلا حين انتخبوا غيري. كان باستطاعتي أن أرفض الانتخاب الثاني واستمر في موقفي لكن أدركت أنه من المستحيل أن يقبل، في حينها، برئيس مسيحي للقسم في بيروت الغربية وقلت لنفسي لو كان الأمر في الشرقية لما قبلوا اطلاقاً بمسلم كرئيس قسم. فلماذا العناد المجاني... تصور أن الأحزاب الطائفية تدخلت في القصة ودار الافتاء عبر ممثلين له تدخلت أيضاً وهيئات غيرهما كثيرة تدخلت. كان الانقسام الطائفي على أوجه آنذاك وما كان استمراي في المنطقة الغربية إلا تحدياً لهذا المنطق الذي كنت أرفضه والذي كنت دائماً أحاول تغييبه عن أفكاري وعن سلوكي مع أنه كان يفقأ العين.

ثم ضحكت بصوت عال وقالت:

- هذا حادث واحد. سأخبرك عما جرى لي في الصف، وبين مزدوجين أصبحت أدرّس كالببغاء يعني: "هذا الفيلسوف قال كذا وهذا الفيلسوف قال كذا" بدون تعليق أو مبادرة

ذاتية. كنت يومها أدرّس مادة تاريخ الفلسفة في السنة الأولى. بدأت البرنامج كما تعلم، بالفلسفة اليونانية، وخلال المحاضرة الأولى والثانية والثالثة، على ما أعتقد، كنت أعرض أفكار الفلاسفة اليونانية قبل سقراط وبعده. فجأة انبرى لي طالب وسألني: "يا دكتورة هذا هو الأسبوع الثالث من برنامج تاريخ الفلسفة ينتهي وحتى الآن لم تتكلمي عن فيلسوف مسلم واحد لماذا؟ أليس عند المسلمين فلاسفة؟ سؤال يضحك حقاً في زمن عادي، لكن في ذلك الزمن المرعب عالجت السؤال بكل جدية مقترحة أنه من الممكن أن نبدأ في السنة القادمة في الفلسفة الوسيطة ثم نعود إلى اليونانية ولو كان تسلسل التاريخ يقول العكس.
ضحكت من أخبارها وعلقت: "كان إذا حسناً الا أعود وأعلّم في أجواء كهذه.

- قصص الجامعة مهزلة حقاً. عندك الأساتذة الذين يتاجرون بالكتب مع الطلاب. يلفون على المكاتب ويأخذون الكتب مجاناً أو بسعر منخفض باسم الجامعة أو بصفتهم أساتذة عليهم نشر العلم والنور ثم يأتون إلى الجامعة ويبيعونها لزملائهم أو لطلابهم ويدّعون المسايرة بالأسعار. تجارة بكل معنى الكلمة! لكن للأمانة يجب القول أن هذا الوصف لا ينطبق على كل الأساتذة، فمنهم من حافظ على أصالته واحترامه لنفسه... فعض على الجرح وسكت. هذا عن الأساتذة أما المكان فهو بوضع يرثى له. لا كهرباء ولا ماء ولا نظافة. زرائب تعج فيها الكائنات من كل الأصناف. هذه هي الجامعة. أما الآن فنتأمل بالتحسين لأن المؤسسات تتبع الوضع العام. فإن تم الوفاق وعم السلام فلا بد أن ينعكس ذلك على أجواء الجامعة فتعود إلى سابق عهدها ولو أنه لم يكن مرضياً تماماً. صمتت قليلاً تنتظر مني أي سؤال وحين لم أقل شيئاً أكملت كأنها تحدث نفسها:
- "كان الوضع صعباً جداً وكان من الصعب علي أن أتكيف مع الواقع لأني أرفضه، كنت لا أستطيع أن أكون ما أنا حقاً لأن الواقع يرفضني، ففضلت أن أعزل نفسي وأنكفئ مشدودة بين فضائين مستحيلين.
- من طالبة متمردة إلى أستاذة خانعة ومنكفئة؟ أهذا ما فعلته الحرب بك. قلت.
- لا تقل ذلك. تمردي لم يتغير وهنا عدم تكيفي. فقط الأشياء في الخارج تغيرت. كنا سابقاً في جو يسمح لنا بقول تمردنا وإظهاره. كان الناس أقوياء. أما اليوم فكل الناس ضعفاء مقمعون يتقوقعون تحت جناح طائفة تحميهم. كان الفرد قوياً فأصبح رقماً تمسحه كبسة على زناد مسدس أرعن.
- إذاً علمتك الأيام أن تدوري الزوايا.
- أما زلت تذكر ملاحظة كمال الحاج؟ كل ما قاله لي يومها هو هذه الملاحظة بالرغم من كل تهجمي على الدين وعلى المؤسسات وغيرها. فقط ملاحظة وتمن. كم كان الجو مريحاً وسموحاً وصافياً! لكن هل تعلم ماذا يعني أن تدور الزوايا؟ هو شيء من اثنين: إما التكيف الكي ونسيان الذات أو الصمت الكلي وأيضاً نسيان الذات. لكن لا الصمت لا ينسيك ذاتك، فقط يعذبك. تماماً كمن يبرد عظمه بيده. نعم تدوير الزوايا هو أن تلتقط مبرداً بيدك وتبرد كل أطراف عظام جسدك. يا لها من مازوشية مؤلمة. لكن عدم التكيف أيضاً عذاب. وإن صرحت به قتلوك. كل طرف يجد العذر المشروع لذلك.
- كنت أظن أن المهاجر وحده يتألم لأنه يعيش العزلة والوحدة. خمسة عشر عاماً وأنا لا أشعر بوجودي. كائن هامشي، هذا هو اللبناني في الخارج وذلك مهما علا شأنه. أما أنت، فكنت تهوين السفر كثيراً فلماذا لم تتركي البلد؟ أنت فيه كما تقولين غير موجودة فعلى الأقل كنت عشت بأمان في بلد آخر.
- لا. ففي هذه البلد، وبالرغم من كل شيء، كنت تمر لحظات هي كالبرق أشعر فيها بوجودي كان ذلك يكفيني. على كل حال خرجت السفر والعيش في بلدان عديدة، في كل مرة كنت أعود كأن أحداً يناديني لأكون الشاهد على كل ما حصل. هنا تستطيع أن تلتقي بصديق أو

بصديقة. حتى أيام القصف المجنون والرعب، تشعر أنك لست وحدك، تكون مع الأهل والجيران، صحيح في الملجأ لكن كما يقولون : "الموت مع الكثرة هين"، حتى ولو كانت المرارة تقطع قلبك وتتساءل لماذا هذا العنف، لماذا هذا العبث الذي لا نتيجة له إلا الخراب. خذ الحرب كلها في لبنان فما من مرة حسم الأمر لصالح أحد. نتائج كل معركة كانت : عدد كذا من القتلى وعدد كذا من الجرحى وعدد كذا من البيوت والمصانع والمؤسسات المهدمة، هذا كل شيء. فقط معركتان وصلتا إلى نتيجة حتى الآن، الأولى إخراج الفلسطينيين من لبنان ولم يتغير شيء بعد خروجهم، والثانية إنهاء التمرد الآن ونأمل أن تكون نتائجها حسنة وإيجابية... سكنت قليلاً ثم مالت برأسها وعبس وجهها كمن يفكر بشيء مزعج ثم قالت:

- "أيام الملاجئ أسطورية وبخاصة في السنتين لأخيرتين. كما كلما ضرب المدفع نتراكض على السلالم إلى مواقف السيارات تحت البناية. كنا نشعر بأمان هناك، فهو مكان تحت الأرض واسع وكله أعمدة... ظلمة قاتلة وبرد مؤلم. كل واحد منا يمسك بيديه قنديلاً وراديو. كنا كالأشباح المتجولة التي تملأ عالم الكوابيس. لكن سرعان ما كانت تتجمع كل القناديل في زاوية واحدة وتبدأ الصلاة والترانيم الدينية. يا له من مشهد سحري يذكرك بما قرأنا عن أيام الرومان وسراديب الأموات Les catacombes، كومة من الأشباح لا وجوه لها سوى الرعب وصوت ابتهالات إلى الرب. منظر يعيدك إلى ما قبل آلاف السنين. وحين تنتهي الصلوات تتفرق المجموعة إلى "بوط"، منها من يلعب بالورق ومنها من يشرب القهوة ومنها من يتحادث، يتحمس لفريق ضد فريق، فتعلو الشجارات هنا والصيحات هناك وصراخ الأطفال من كل مكان والقصف على أشده. ثم يتفرق الناس ويذهب كل إلى سيارته، يجلس فيها، تنطفئ القناديل وتصمت الراديوهات، ويحاول أن ينام حين يخف القصف قليلاً، كانت هذه هي العادة، يترك المقاتلون فسحة للنوم ولو في الملاجئ، تجولت مرة في هذا الوقت، وبيدي مصباح صغير كي لا أتعثر، فكنت كمن يتجول بين القبور. كانت هذه الفكرة ترعبني دون أن أجربها إلى حين جربتني هي فألفتها لأني ألفت الرعب المتكرر في كل ثانية... تذكر ولا تعاد تلك الايام. تقول إنك لم تشعر بوجودك مرة في الخارج ونحن هنا كان وجودنا مهدداً في كل لحظة ليس بعدم الشعور به فقط، بل بالموت المجاني العبثي الذي يطاردك أينما كنت في سريرك، في بيتك، في الشارع، في عملك حتى وأنت تمارس الحب. هذا الأخير كان نوعاً من الرقص فوق القبور، تشعر وأنت فيه كأنك تتحدى الموت.
- هو دائماً كذلك أجبت.
- لا، هناك فرق بين أن تتحدى بسخرية مازو – سادية وبين أن تتحدى بحب. فرق أن تتحدى في سبيل الحياة وبين أن تتحدى كمن يحز رقبته على السكين...
- ولماذا دامت الحرب، ألم يكن بالإمكان التوصل إلى وفاق قبل الآن فيوفر هذه الويلات وهذه الصدمات التي لن تزول بسهولة وبخاصة عند الأجيال الجديدة...؟ تركتني قبل أن أنهي قولي وذهبت. ظننت أنها دخلت الحمام لكن بعد وقت غير قصير أتت وبيدها مجموعة أوراق وقالت الآن سأقرأ لك جواباً عن سؤالك ثم بدأت:
- العنوان هو : الوفاق نثراً.

أعجبني العنوان وعلقت عليه: "أغيرك كان يريده شعراً؟"

- لا، لكن ما سأقرأه لك هو توضيح لما اعتبره الناس في حينه شعراً، لأنهم لم يفهموه جيداً. فلذا أحسست أن التوضيح كان واجباً. لكن وكالعادة لم ينشر التوضيح وبقي الوفاق غير مفهوم كأن الغاية من عدم نشره أن يبقى شعراً. فاصغ.

شرعت بالقراءة. تركتها تقرأ وأنا أراقب ذلك الوجه الذي شعرت كأنني لم أفارقه لحظة. وجه يرفض الترهل، فقط بعض التجاعيد التي تجمعت حول العينين وأطراف الفم، تماماً محل النظر والصمت... خيوط الشيب غزت ذلك الشعر الأشقر فانسجمت معه مانحة إياه ميلاً إلى اللون الفضي. كان بلون الشمس فأصبح بلون القمر باهتا. أصابعها ما زالت صغيرة. حتى جسمها لم يتغير، فقط بعض من السمة حولته الو جسد امرأة ناضجة. على الطاولة بقربها كتابان فرنسيان أحدهما مغلق ويحمل عنوان "المنفية" والثاني مفتوح ومقلوب على الطاولة وكأنها ما زالت تقرأه ويحمل عنوان "النور الذي ينطفئ" وكلاهما بنفس الغلاف الأنيق الأبيض. لاحظت بعد قليل أنهما من جوائز نوبل في الآداب.

لم أسمع شيئاً مما كانت تقرأه. لاحظت ذلك فتوقفت قبل أن تنتهي من كل الصفحات وقالت: "إنك لا تتابعني" فبماذا تفكر؟

آخر ما كنت أفكر فيه هو عناوين الكتب. نظرت إلى الكتابين، فقرأت التساؤل في عيني وأجابت:

- هذه الأيام أقرأ ما فاتني قراءته وأنا مناضلة. كنت لا أحب قراءة الروايات والقصص والأدب بوجه عام. أما اليوم فلا أكاد أنتهي من قصة أو قل من كتاب حتى أبدأ بغيره. لحسن الحظ أن مكتبة أخي ضاقت بمحتوياتها فوضع مجموعة جوائز نوبل في الآداب في مكتبتي أمانة. فشرعت بقراءتها بشغف ومتعة. إنها المخرج لوقت لا أعرف كيف أمضيه حين أكون وحدي. فالقصة الجيدة تأخذك إلى عالمها وتنسيك ولو لفترة الواقع.
- ولماذا اختيارك لهذين الكتابين الآن؟ أيضاً فهمت مقصدي وأجابت بسرعة كأنها تنفي كل ما راود فكير لحظتها.
- إني أقرأ كتاب هذه المجموعة بطريقة مجانية. وضعتها في المكتبة بدون أي ترتيب وبدأت أسحب منها كتاباً كتاباً؛ حين أنتهي من واحد أرده إلى مكانه وأسحب جاره من دون اختيار لاعتقادي بأنها طالما كلها من جوائز نوبل فكلها تقرأ، وبالتالي لا داعي لأن تسرح أفكارك في تأويلات لا أقر بها اطلاقاً. قالت ذلك منفعلة كأنها بسلوكها المتكابر هذا تثبت ما كنت أفكر به. ثم غيرت الموضوع نهائياً وقالت:
- "ماذا عندك الآن، هل نذهب لتناول الغداء في "ملتقى النهرين"؟
- ليس عندي شيء اطلاقاً ومشروعك هائل، كنت سأقترحه لولا...
- انتظرني سأرتدي ثيابي ونذهب.
- خذي وقتك فأنا سأكمل قراءة... وقبل أن أنهي جملتي قالت:
- ستكمل أم تقرأ من جديد. ضحكت. ودخلت غرفتها. رفعت الأوراق عن الطاولة وأخذت أقرأ ما لم أسمعه منذ لحظة.

الفصل الرابع
الوفاق نثراً

شدتني "نقطة وحيدة للوفاق" المنشورة في جريدة السفير بتاريخ 80/3/2 إلى الكتابة، شدتني ربما لأنها استوقفت "فهمي العادي"، لتريه انعكاس ذاته في مرآة صافية، مرآة تعكس ذات "الفهم العادي" في وضوح رؤيته لما يسيره ويحوله حبة رمل بين الرمال المتشابهة. رأيت في هذه المقالة أو سمعت منها تعبيراً صريحاً عن قول الناس، إنما لا يصل إلى كل الناس، كل الذين دفعوا ثمن الحرب التي عصفت بلبنان؛ ما عدا، طبعاً من ينطق باسم هؤلاء الناس. سأحاول إذن، نقل هذه المقالة نثراً من أجل أن تصل إلى من يجب أن تصل إليه. ومن أجل أن تبدد سوء الفهم، إن وجد أو على الأقل سوء النية الصامتة أو المتجاهلة.

يرفض تقديم المقالة الادعاء السياسي، ولكنه رفض من موقع الإثبات تماماً كما يرفض السياسيون وقادة السياسة في لبنان المنطق الذي يحرك فكرهم وبه تتبلور ممارساتهم. هذا الرفض هو مسلك إيديولوجي أكيد لأن شرط هيمنة الأيديولوجيا أن لا تصرح عن نفسها إنها، إذن مقالة سياسية بالرغم من التنبيه إلى عدم سياستها. كيف لا وهو تحليل للمنطق السياسي الهيغلي الذي به تتحرك سياسة من هم قادتنا إلى التضحية والاستشهاد، كي يبكوا فرحاً على قبورنا، متوجين بأكاليل الغار التي تفوح برائحة دماء من ورثوا.

"إننا نعيش لحظات تاريخية حاسمة"، هذا هو قول القيادات السياسية المتواصلة. لماذا هذه الاستمرارية للحظات الحاسمة. إن لم تكن لاستنفار من سيكونون شهداء ولوضعهم في حالة كابوس وهمي يعطل الفكر لديهم ويوجههم في قناة واحدة، هي قناة التهيؤ للموت، وبالتالي وضرورة، قناة الدفاع والاستبسال؟ إذا سقط شبح الحرب واللحظات الحاسمة تحول القادة إلى أفراد من الشعب أي إلى رمال بين الرمال وأصبح الصراع بين طبقات الشعب (الذي ليس هو رمالاً متشابهة) هو المحرك والقائد وتغيرت كل المعادلات التي بها وفيها تعيش اللعبة السياسية الحالية في لبنان. هكذا تسقط أوراق الوفاق والخلاف لتنتقل إلى حقل آخر هو حقل صراعها الطبيعي.

ومفهوم اللحظات الحاسمة هو أن لا مفر من الحرب التي لا يريدها أحد: هذا هو أيضاً قول من أقوال الناطقين باسم المحاربين الفعليين، قولهم كلهم على الاطلاق. إذا لم يرد أحد الحرب، فلماذا التهويل بها؟ أن التهويل بالحرب في لبنان أصبح كالتهويل "براجح" في مسرحية الرحابنة. لقد اصبحت الحرب، ولكثرة التهويل بها، عند "الفهم العادي" شخصاً يعيش بيننا ويطرق أبواب بيوتنا، لكنه لا يتجول ويطرق الأبواب بالتتالي بل يطرق كل الأبواب معاً وباستمرار. فمن يخلق شبح الحرب؟

نتلمس الجواب بفتح "نون المتكلم" في كلمة نريدها (أي الحرب) كما يدعونا إلى ذلك الكاتب. هذه المحاولة ترينا ما رآه هو تماماً، لأنه بالضبط، ما رآه تماماً ولم يفصح عنه صراحة. إن "النون" في "نريدها" هي غير "النون" في "لا نريدها". الأولى تعود إلى من يريدون فعلاً الحرب لأن بها وبها فقط يعلو صرح أمجادهم، أما الثانية فتعود إلى من لا يريدون فعلاً الحرب وهؤلاء هم كل الناس، كل الذين تقوم الحرب على ظهورهم وتعمد بدمائهم وأرزاقهم... وأولئك هم غير هؤلاء طبعاً، لأن القادة في الحرب في لحظات احتدامها لا يموتون لا بل لا ينقصهم شيء من ضرورات الحياة ولا من كمالياتها. أثر الحرب على القادة هو توتر أعصاب نسائهم اللواتي "ينشغل بالهن على أزواجهن" فتصبح الرحلات الاستجمامية لهن إلى أوروبا من ملحّات الحياة المعيشية تماماً كإلحاح الجوع والخبز عند الفقراء. وهنا أسمح لنفسي باستطراد صغير، ولكنه من وحي المقالة لأنها تتكلم عن "الإنسان وليس عن المرأة"؛ إن المرأة في لحظات احتدام الصراع، أي عندما يتحول الصراع إلى عنف وحرب مسلحة، تعيش كليتها بتحقيق هيولتها أي الانتظار. المرأة في مجتمعنا انتظار فقط، هيولي لا تتشكل إلا بانضوائها تحت جناحي رجل. هذا الانتظار الذي يأخذ حجمه الكلي في لحظات الحرب يحقق المرأة. وبالتالي يزيد اللحمة بين الهيولى والشكل، فيزداد تعلق زوجة القائد

بزوجها، ويحقق القائد، هكذا، نصرين، أولهما أنه لم يمت في الحرب وثانيهما أنه مارس ما به تتشكل هوية المراة، هذا التشكل الذي يضطرب في حالات السلم لكنه لا يلغى. أتفعل الجمعيات النسائية في لبنان غير ذلك؟ تلك الجمعيات التي تنشط في حالات الحرب هي نوع من التمثيل (illustration) على الخط السياسي المرسوم ومن نشر له في أوساط لا يستطيع الوصول إليها لوحده. ويسير كل شيء كانما يتم استباق الأمور ومحاولة تأخير إمكانية الانفتاح والفكر المستقل عند المرأة. إنها محاولة استباق لواقع محتمل، أي ما معناه أن الخط يضع، ضمن احتمالات التغير، احتمال تفتح الوعي والفكر عند المرأة. فإن تم ذلك يكون إطاره موجوداً، وإن لم يتم فليس من خسارة طالما أننا نعيش في مجتمع الإنسان أي الذكر. (لا أتوسع بهذه الناحية لأنها تتطلب دراسة قائمة بذاتها).

سمعت باب الحمام يفتح وسمعت صوتها تقول:

- هل ضجرت؟ سأحاول الاسراع
- لا لم أضجر، خذي وقتك فأنا مستغرق في القراءة.
- حسناً أكمل القراءة لأن بعدها أظن أنك لا تعود تسألني عن رأيي في حرب لبنان.

غاب صوتها وعدت إلى القراءة.

نعود المقالة لنرى في مقطع الاحتمالات صورة حية لتجسيد استمرارية اللحظة الحاسمة. إذا كان التاريخ خيطاً مشدوداً على حد سيف، فكل نقاط الخيط متشابهة. يبقى علينا أن نفهم لماذا تاريخنا هو خيط مشدود، وما هو السيف؟ الخيط كما فهمت من المقالة هو الناس البسطاء، أي المنفذون الصغار (petits Agent) الذين تسمك برقابهم جبهتان متصارعتان، والسيف هو تماماً شبح الحرب الذي ترفعه هاتان الجبهتان على رقاب من لا حيلة لهم ولا طول. لهذا السبب ينجو هذا الاحتمال من الترقيم. هو واقع مستمر وواقعيته الاستمرارية أفقدته موقعه في سلسلة الاحتمالات لتحويله إلى سلسلة حروب لا تظهر ضرورتها إلا بعد حصولها لا قبل. وذلك بسبب تشابه اللحظات من جهة، ومن جهة ثانية بسبب المنطق الهيغلي اللامادي حيث أن كل ما يحصل هو ضرورة لكي يستمر التاريخ في نسج حيله.

أما المقطع رقم "2" فسأعرضه بلغة العامة من الناس أي ضمن معادلات منطق الفهم العادي. هذا المنطق يرى أن الوفاق لا يتم أو لا يمكنه أن يتم إلا بين أهل الخلاف، لأنه واقع وحاصل بين أهل الحياد، يعني بين الناس أصحاب الفهم العادي. فكل الناس ما عدا أهل الخلاف – الوفاق، لا يريد الحرب. ينتج عن هذه المعادلات أن من يريد الحرب هم أهل الخلاف ولكن على قاعدة الوفاق التي هي الحرب. كيف؟ ولماذا؟ إن الجواب الواضح على التساؤلات يأتينا في المقاطع التالية من المقالة حيث يظهر ثالوثا الوفاق أو الخلاف بين أهل الخلاف – فإذا كان الخلاف في الثالوث الأول حول "عروبة لبنان، حقوق لبنان الطوائف ونظام لبنان السياسي" أو "نظام عروبة لبنان الطوائف" فأي وهم هذا الخلاف. إنه وهم فقط في رؤوس من تمر اللعبة من وراء ظهورهم وهؤلاء هم الناس أي الثمن الحيادي، وحركة اللعبة هي التالية : الخلاف وهم والوفاق هو واقع، ويستمر الخلاف على أرض الواقع. إنها حقاً لعبة لا يستطيع الفهم العادي ادراكها. لهذا السبب ينصحنا الكاتب، نحن أصحاب الفهم العادي، بالصبر لأنه "خير من الموت على كل حال" ولكنه صبر مؤد إلى الموت على كل حال، لأنه صبر على خلاف "اقتسامي – مغانمي – زعائمي"، بين من هم على اتفاق تام في الاستعداد لاشعال الحرب إن لم تتم القسمة من جديد أي إن لم تعد إلى ما كانت عليه سابقاً.

كيف يبقى الخلاف وتختفي قاعدته الوفاقية، كيف يخفي أهل الخلاف هذه القاعدة بالرغم من بداهتها؟ ربما لا يخفونها لسبب بسيط هو أنهم لا يرونها. فلنحاول توضيحها.

خلاف حول عروبة لبنان؟ ما هي واقعية الوفاق لهذا الخلاف؟

يظهر للناس من التصريحات الوفاقية الخلافية، إن الخلاف حول عروبة لبنان ينحصر في كلمة "وجه" فقط، أي أن من تسميهم لغة هذا الخلاف انعزاليين، يريدون للبنان وجهاً عربياً كي يبقى

وجهه الآخر أو وجوهه الأخرى غير عربية، وبالتحديد غربية امبريالية. والتقدميون (أيضاً بالنسبة للغة ذاتها) يريدون لبنان عربياً فقط. ولكن إذا حللنا القولين في موقع خلافهما، نرى أن الخلاف هو وهم وخلاف على أرضية وفاق. فإذا سئل التقدميون عن مضمون "عروبة لبنان" أتى الجواب : على لبنان أن يكون عربياً تماماً ككل الدول العربية. حسناً يقول الفهم العادي ويتوجه نحو الدول العربية ليحدد عروبتها، فيتبين له أن العروبة هذه تتحدد باللغة والانتماء، فيقر بمسلمة عروبة لبنان. ويسرع ليتفحص قول الانعزاليين: للبنان وجه عربي فيرتبك فهمه ويصرخ أين الخلاف؟ لماذا لا يرى الفهم العادي خلاف أهل الوفاق هذا؟ فقط لأنه فهم بسيط يرى الأشياء في واقعيتها المعيوشة لا في رؤوس أهل الخلاف حيث يتحول الوفاق، ايديولوجياً وليس عملياً إلى خلاف. أنه حين توجه إلى الدول العربية رآها تماماً كلبنان ورأى لبنان تماماً كالدول العربية. فكلها، بمن فيها لبنان عربية وهذا وجه من ذاتيتها. ولكنها كلها، تتحرك وفقاً لوجوهها الأخرى غير المعلنة، هذه الوجوه المتطلعة إلى الغير وبالتحديد إلى الدول الغربية الامبريالية. هنا وضمن هذه المقارنة على أرضية الواقع المعيوش يسقط الخلاف الأساسي ولا يبقى إلا خلافات ثانوية تأخذ في لعبة التاريخ موقع الأساسي لأن الحرب لا تقوم إلا على أسباب أساسية لا ثانوية وإلا بطلت الحروب.

أما مظهر الخلاف – الوفاق الثاني، فهو يدور حول الحقوق الطائفية في لبنان أو حول حقول لبنان الطوائف. ولكلمة "حقوق" هنا أهميتها الكبرى لأن عليها يقع الخلاف وليس على الطوائف. أن يكون لبنان بلداً مكوناً من مجموعة طوائف تندرج تحت ثنائية عامة، فبداهة يتلمسها كل الناس ويرسخها في عقول كل الناس التناحر على اقتسام حقوق هذه الطوائف بين ممثلي الطوائف أي بين أهل الوفاق. فإذا تمت قسمة مراكز السلطة على ممثلي الطوائف، تبخر الخلاف أو اندرج في لائحة الوفاق. وهنا يتساءل الفهم العادي: أين الذين حاربوا وماتوا واستشهدوا من هذا الوفاق. ويجيب بصمت لأن صوته لا بسمعه ممثلو الطوائف: إنهم مساكين لم يكونوا إلا تعبيداً لطريق يسلكها من لم يمت لأنه بالضبط لم يحارب. ولكنه لماذا يرث إن لم يحارب. فقط لأنه الصورة التي تشكل المادة. فماذا تصبح المادة إذا فقدت صورتها. تصبح هذه المادة، في لغة أرسطو، بلا تحديد، أي تعود عفوية الناس إلى نفسها. ولكن ضمن الخط الزمني المشدود الذي رسمه لها القادة وبخاصة إذا كان هذا الخط على حد سيف، فهي طائفية، لا مفر، لأن من يشدون خيطها يريدون ذلك. إن الفهم العادي لا ينظر إلى العقائد ولا تهمه العقائد التي تنفي الطائفية تصريحاً وتمارسها فعلاً، إذ ما تنفع الفهم العادي عقائد، بين عقائديتها وممارستها تناقض. يجيب أهل العقائد عن هذه التساؤلات، أن لا تناقض بل أخطاء. ولكن الفهم العادي يعود ليسأل هل الأغلاط تلغي الوقائع. ويبقى السؤال بلا جواب، ويسقط في الثانويات بواسطة المنطق ذاته الذي رفع الثانويات السابقة إلى موقع الأساسيات.

نقطة الخلاف – الوفاق الثالثة، أي نظام لبنان السياسي، هل تظل تشكل خلافاً إذا تحولت الخلافات السابقة إلى وفاقات. من المؤكد أن لا. فتحقيق وفاقية الخلافية الأولين يلغيها كخلاف لتشكل قاعدة الوفاق أي لتعود من جديد من كانته قبل الخلاف وقبل الحرب. كيف؟ إذا كان لبنان عربياً كما رأينا سابقاً وإذا تمت القسمة الطائفية لمراكز السلطة على ممثلي الطوائف، تم آلياً بناء نظام لبنان على الأسس نفسها التي كان مبنياً عليها سابقاً. هكذا تغلق الدائرة التي فتحت في الحرب تماماً عند موقع فتحها، وتعود الوحدة الدائرية الهيغلية التي لم تفتح إلا لتحقيق ذاتها من جديد في ديمومتها، فتتربع على خط سيرورتها مزدادة ترسخاً وتحققاً وتعمقاً. هنا أيضاً يعود السؤال ملحاً، عند الفهم العادي، أين الذين حاربوا وماتوا واستشهدوا من أجل التغيير وبالتحديد من أجل تغيير النظام السياسي. إنهم ماتوا مع من ماتوا واستشهدوا من أجل تغييره، ماتوا خارج النظام السياسي، ماتوا مع النظام الاقتصادي الذي تريد الحلول الوفاقية تأبيده، وكأنه خارج حلبة الصراع، متناسين أو متجاهلين أنه "المحدد في نهاية المطاف".

ربما كان ل،"نهاية المطاف" بعد زمني في أذهان أهل الوفاق، أي أن زمن المحدد الاقتصادي يأتي في نهاية مطاف الزمن السياسي. ولكن هي يعلم أصحاب هذا المنطق أن من مات واستشهد لم يمت ليرثه سياسياً فقط من ورثه.
لقد تم الوفاق، إذن، وبقي الخلاف. لعل السبب في ثالوث الوفاق الثاني الذي هو "الله، الوطن، العائلة". فلنتناول هذا الثالوث الجديد القديم كما تناولنا الثالوث الوفاقي السابق. نبدأ من هذا الثالوث بشقه الأكثر مباشرة، أي من العائلة. إنها التركيبة أو البنية التي على صورتها ومثالها يبنى الوطن وبالتالي تصور الله. إن العائلة في لبنان (وليس في لبنان فقط) أبوية البنية أي أن في العائلة مركز قيادة وأفراد. الأب هو القائد والزعيم أو السلطة. هذا أمر بديهي إذا ما نظرنا إليه في الواقع المعاش. فالعائلة إذن، بناء هرمي يتربع على قمته حامل السلطة وممثلها والناطق باسمها. اسم الهرم كله. فإذا انتقلنا إلى مفهوم الوطن، نراه، في تصور أهل الوفاق نسخة عن بنية العائلة، أي أفراد، وفي لبنان مجموعات من الأفراد وذلك بسبب الخصوصية الطائفية للبنان، ويتربع على إرادة كل منها ناطق باسمها؛ وموقعه كناطق باسمها يؤهله لتسلم مركز من مراكز السلطة في قمة الهرم. إن ضرورة الهرمية للوطن هي تماماً كواقعية الهرمية للعائلة. وفي "نهاية المطاف" من لا ينتمي إلى عائلة ومن ثم من لا ينتمي إلى الوطن؟ أما الله فهو "الأب" المطلق، ومن ينكره في لبنان؟ السؤال هنا لا يطرح على صعيد الأفراد بل على صعيد الممارسة السياسية المتمثلة بالناطقين باسم الشعب اللبناني بمن فيهم احتمال من قتل "الأب" وتخلص منه نهائياً.
نرى، إذن، أن ضمن الفهم العادي، يتحول هذا الثالوث الوفاقي إلى بداهات، وهو كذلك، فنحن ومن يمثلنا تعيشه، وأكثر من ذاك فهو يحرك كل ممارساتنا الواعية لأنها لاواعية. لا خلاف على صعيد البداهات، بل وفاق، ويبقى الخلاف. ولكن في هذه المرحلة يحتار الفهم العادي بل يرتبك. إنه عاجز عن فهم هذا التناقض. وهنا يستسلم قائلاً: "ربما كانت الأمور على غير ما أرى وأفهم، وطالما أن أهل الوفاق هم على خلاف، فلا بد أن يكون ثمة خلاف لا أستطيع كنهه. تتحول الحيرة هنا إلى سؤال: لماذا يموت من يصنع التاريخ ويعيش الورثة؟ على الفهم العادي أن يصل إلى حل هذا السؤال والحل موجود في المنطق الجدلي الهيغلي؛ اعلم أيها الفهم العادي أن التاريخ في المنطق الهيغلي "ماكر" وصفاؤك لا يفهمه، ولأنك لا تفهم هذا المكر بسبب صفائك ووضوحك، يستعين التاريخ بمنفذين لمكره، أي أنه يستعين بتوسطات، طبيعتها المكر، لتضع الخلاف في موقع الوفاق والوفاق في موقع الخلاف، فتتبدد الخلافات والتناقضات الحقيقية كما تراها أنت وتدفع حياتك ثمناً للتخلص منها كي يأتي الورثة ويقطفون ثمن الاستشهاد في تنشيط عملية المكر.
وتجنباً للالتباس في الفهم العادي، لأنه لا يفهم المكر، يقدم الكتاب تاجاً لمن تسقط على رؤوسهم أكاليل الغار، لكنه تاج رمزي بسيط يجب نقله، لأنه بسيط، إلى لغة الفهم العادي. وتطبيقه على أرضية الواقع اللبناني أمر في غاية الوضوح إذا استطعنا فك رمزية كلمتين فقط لنرى كيف تتحرك مسرحية أهل الوفاق.

إن كلمة "المرء" في النص الأخير من المقالة تعني على صعيد الواقع اللبناني الحالي القادة السياسيين الذين طولوا أظافرهم. وكلمة "ولد" هي "النحن" ذات الفهم العادي. يغرز "المرء" أظافره في صدر الولد تماماً كما يزجنا قادتنا وزعماؤنا في الحرب ويستشهد من يستشهد فيتغذى "المرء" بدماء الشهداء ودموع من يبكونهم. لكن من يموت هو من قواعد القيادات بالذات، لهذا السبب تشعر هذه القيادات، وهي صريحة، أن هذا الدم وهذه الدموع هي دمها ودموعها، وتعبر عن هذا الشعور بالخطابات الرنانة على قبول الشهداء وتتلذذ بلحس دمائهم لأن لا طعم له. هنا تنتهي المرحلة الأولى من الحرب في لبنان لتبدأ المرحلة الثانية. هذه الأخيرة تبدأ من الألم. لقد مات من مات من الشعب واختنق الآخرون من وطأة الحرب ورفضوها، فظهرت نعمة الوفاق تماماً كما هرع "المرء" في المقالة، إلى الغرفة الثانية ليتظاهر بأنه آت لنجده "الولد" بعدما يكون قد أشبع

ساديته فترة وانزعج من قدرة التحمل المازوشي عند "الولد"، يعني، وبلغة الفهم العادي، تعب الناس من الحرب والدم والدموع فهرع القادة إلى الوفاق ومؤاساة الشعب الجريح. لكن في هذه اللحظة ولكي تبقى قاعدة للخلاف، ينفصم الجسم القائد إلى قيادتين كل منهما يواسي جريحه برمي اللوم على شقه الثاني. إن هذا الجسم يتألم فعلاً لأنه انفصم ويتوق إلى الوحدة من جديد. أمام هذا الألم لا حيلة للولد إلا الغفران، فيأتي "غفرانه شاسعاً كالكون"، وتصبح القيادات ضمن لعبة الغفران هذه معبودة الجريح. فما وحدها في الاجرام والحرب وجر "النحن" البائسة إلى الاستشهاد، فرقها في لحظة الندم، لأن الندم عذاب، ليستمر الخلاف، وتستمر لعبة نشب الأظافر في الصدور الناعمة.
ملاحظة: بعد نقل هذه المقالة إلى لغة الفهم العادي، لا بد من توجيه النقد لمضمونها. فقد أراه يرتسم على شفاه من نطقت المقالة باسمهم. وطالما أنه آت من هؤلاء فالنقد يكتسب كل شرعيته: إذا كانت الحالة على ما رأيناه أو كما يراه صاحب المقالة في تعريفه لدور القيادات وتهميشه بالمحافظة فقط على وجهه الحقيقي السلبي، إذا كانت إذن الحالة هكذا، أليس من خوف على وجود لبنان بالذات، ألا يصبح لبنان معرضاً لكل احتمالات الغزو والاحتلالات الخارجية من عربية وغربية واسرائيلية ... إذا سقط دور أهل الوفاق كما سقط فعلاً في المقالة؟
قد يكون – لكن اسمح لنفسي برد، ليس أدري ما هو مدى موافقة الكاتب عليه، ولكني استنتجه من منطق قوله بالذات في مقالته "نقطة وحيدة للوفاق". الرد هو التالي: إن باب الاحتمالات السابقة وارد، لكن الخارج لا يؤثر في الداخل إلا على أساس تناقضات الداخل. هنا لا بد من تساؤل – جواب، هل التناقضات الفعلية في الداخل، أم أن رؤية هذه التناقضات بوضوح، هو فتح لباب الاحتمالات حول وجود لبنان أو زواله؟
ما كدت أنتهي من القراءة وقبل أن يكون لدي الوقت للتحليل، خرجت من غرفتها بثياب أنيقة.

- ارتديت هذه الملابس لأن "ملتقى النهرين" اليوم غيره أيام زمان.

تنفست بعمق وقلت بصوت عال:

- العطر إياه
- استعملته اليوم من جديد. فلطالما غيرت وبلدت عطري هذه السنين. صمتت برهة ثم قالت.
- أنا جاهزة، فلنمش، ثم استدركت وقالت: "لحظة" أمسكت سماعة الهاتف:
- أوف نسيت أن لا خطوط، لا هنا ولا هناك الآن، لكن لا بأس سأتدبر الأمر.
- ولهذا السبب لم استطع مكالمتك قبل مجيئي، قلت.
- إنها حالة استثنائية، فالهاتف لا ينقطع في هذه المنطقة إلا نادراً وكذلك الكهرباء. نأمل أن لا تطول هذه الحالة.
- أعجبني مقالك، لكنه صعب على الفهم العادي ولو نشر لما كان حقق هدفه.
- أظن ذلك، ولهذا السبب استمر الوفاق شعراً حتى الآن. ثم استدركت، ولست أدري إذا كان سيستمر.
- إنك غير متفائلة إذن.
- إني حذرة فقط، والآن ما لنا وللحرب. فهيا بنا.

الفصل الخامس

ركبنا سيارتها التي لم تعد سيارتها السابقة وتوجهنا نحو المدينة بعكس ما كنت أتوقع فسألتها:

- إلى أين؟ أليس إلى ملتقى النهرين؟
- بلى، ولكن علي أن أعلم ابنتي أنني سأتأخر.

وقع قولها كالماء البارد علي:

- ابنتي تقولين؟
- نعم طفلة صغيرة علي أن أعتني بها.
- تزوجت إذاً؟ سألت بارتباك.
- لا، أجابت، وهي تهز رأسها نفياً.
- لست أفهم.
- الأفضل لك أن لا تفهم... إنها أحكام القدر وهذا الدهر.

أوقفت السيارة، صعدت إلى بناية لا أعرفها ثم عادت بسرعة.

- كل شيء على ما يرام الآن نستطيع الذهاب حيث نشاء قالتها.

كنت كمن أصابه دوار: هل جنت أم أنها تهزأ مني.

وجهت السيارة نحو الجنوب ومضينا صامتين، حتى ضاق صدري بأسئلة كثيرة فقلت بدهشة من يخرج من صدمة كبيرة.

- قولي هل تزوجت وأين زوجك؟
- ضحكت بصوت عال وقالت:
- لا، أرجوك أقفل الموضوع.

سكت برهة وتمالكت أعصابي ثم سألتها بتحبب:

- فلنكن جديين، لماذا لم تتزوجي؟

صمتت لحظة ثم قالت وهي شاردة كعادتها حين تكون جدية:

- لقد قتلت الكنيسة أولادي الأصحاء فتشجعت على قتل من كان سيولد معاقاً، هذا كل الموضوع. ثم لماذا الأولاد؟ حلاوتهم لا تضاهي مرارتهم. تصور حالة الأهل بعد ذهاب الأولاد من البيت كل في سبيله. لا تستطيع الآن أن تتصور الجحيم الذي يعيشه الأهل في هذا الوقت. أنا اختبرته. يصبحان وحيدين كل منهما غارق في عالمه. فما كان يجمع بينهما من الفة حين كان الأولاد في البيت يأخذه الأولاد معهم ويصعب عليهما إعادة ما انقطع زمناً طويلاً فيغرقا كل في وحدته القاتلة. أعرف ذلك جيداً. كنت أدخل على والدي فينتابني حزن عميق. والدي مع جريدته مستلقياً على مقعده ووالدتي صامتة كأن لا وجه لها، قبالة التلفزيون. ادخل وكأن شريطاً وصل بينهما فيبتسمان معا. يبتسم والدي كمن رد الروح إليه وتتحرك والدتي في مقعدها ويقولان معاً: "جئت؟" فيتفتت قلبي دماً وأتعذب. أتعذب حقاً ولا أطيل المكوث، أهرب إلى ذاتي وأعود إلى بيتي ترافقني صورتهما حتى يغمض النعاس عيني فأنسى. الأولاد كفار ينسون بسرعة. أما الأهل فمرارتهم كبيرة لأن حياتهم أصبحت اجتراراً لماضٍ لن يعود.

ثم استرسلت كأنها تخاطب ذاتها فقاطعتها وقد علق في ذهني ما قالته في بداية كلامها.

- أعترف بأني لم أفهم شيئاً. أما زالت قضية الطلاق معلقة؟ لكن لنفترض ذلك فما هي علاقته بما تقولين؟
- لا، لقد بت الأمر منذ سبع سنوات. وأنا منذ ذلك الحين حرة... طليقة... قالتها بمرارة.
- إذاً ماذا قلت؟ لم أفهم. أنني أكرر لم افهم. لم أعد أفهمك.

فإذا أصبحت حرة منذ سبع سنوات لماذا لم تتزوجي حتى لو كنت ترفضين الأولاد؟

- أهذا ما فعله البعد فيك، حقاً لم تعد تفهمني، تغيرت كثيراً يا "أومار" لا ألومك، من الممكن أن تكون أنت على الحق وليس أنا. أنا ما زلت أتعذب وأواجه بسبب قناعاتي التي يبدو أنها لن تتغير، شبنا وما تغيرنا كما يقولون.
- أما زلت رافضة للزواج؟
- هزت برأسها إيجاباً وقالت:
- بعد أن أصبحت حرة لم يعد له لزوم على الإطلاق.
- كيف؟
- لقد أجبتك سابقاً لكن يبدو أنك حقاً لم تفهم. سأشرح لك بالرغم من أن الموضوع أصبح من الماضي ولا أحب أن أذكره : تعلم أني بدأت عملية الطلاق ولم يكن عمري إلا سبعاً وعشرين سنة. كم دامت الدعوى؟ أحد عشر عاماً كاملة. فإذا حسبت العملية فيزيولوجياً ترى أن هذه الفترة هي فترة الإنجاب السليم عند المرأة بعدها يكون الإنجاب مخاطرة. هذا هو كل الأمر. والزواج، برأيي هو للإنجاب فقط ولإعطاء شرعية واسم للأولاد. من هنا فإن ما سمحت به الكنيسة لنفسها حللته لنفسي. وإن كان من جرم، كما يقول لي البعض، فجرمها أكبر بكثير من جرمي الذي هو تعقل أكثر منه أجراماً. صمتت قليلاً ثم فجأة قالت وكأنها تريد أن تنتهي من الموضوع:
- أنظر حولك الدمار الذي حل بالبلد. إن دمار شخص فرد لا يغير مجرى التاريخ أما ما جرى للبلد فهو حقاً أمر فظيع.
- أين نحن الآن؟ سألتها.
- وصلنا إلى الدروة، لقد مر على هذه المنطقة ثلاث كوراث كبيرة. حرب أسموها حرب التحرير وانفجار خزانات الغاز والحرب الأخيرة التي اسموها حرب الإلغاء، فكان ما كان حيث لم يبق شيء مما كان.

يا له من منظر مرعب يذكر بصورة الأسواق القديمة كما كنا نراها في الصحف: "أما زالت الأسواق على حالها من خراب" سألت.

ضحكت بسخرية وقالت : "الآن كل البلد تقريباً أسواق قديمة. لست أدري كم ستدوم عملية الأعمار... هذا إذا افترضنا أنها حقاً بدأت".

المشهد حقاً مؤلم لكني أشعر بأني قادر على زيارته بمفردي ولست بحاجة إلى دليل فعدت إليها أسألها:

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تتزوجي حتى بدون أولاد. أليس من الأفضل لك أن يكون لك شريك أو رفيق بدل أن تظلي وحيدة؟
- الوحدة مؤلمة. أعرف ذلك، لكنها تصبح أكثر إيلاماً إذا ما كان عليها شاهد.
- إذاً لماذا لم تنجبي ولداً بدون زواج ولا أظنك كنت ترفضني ذلك سابقاً.
- ولست ضده الآن لأن مفهومي للزواج كما تعرفه لم يتغير. لكن لدي الآن طفلة تأخذ كل وقتي. هذا يكفيني حقاً ولا أريد المزيد. طفلة تعذبني لأني أمضي وقتي بالتأرجح بين عالمها وعالمي. مسكينة لا تدري ماذا تفعل بي ولكن لا حيلة لها ولا طول.

صمت كمن يستمع إلى إنسان يهذي. لاحظت ذلك أدارت وجهها نحوي وقالت:

- إن لم تفهم فلست ملاماً. لكن لا تطلب مني الافصاح. سكتت وساد الصمت فيما بيننا لحظة شعرت فيها أن كلاً منا أصبح بعيداً عن الآخر بعد شخصين غريبين التقيا صدفة في وسيلة نقل عامة. تابعت السير فوصلنا منطقة غاليري سمعان - مار مخايل. هنا لم أستطع السكوت. صرخت: "يا إلهي ما هذا". منظر يوقف شعر البدن. تشعر وكأنك فجأة دخلت كابوساً أو دخلت مدينة الأموات. كأنك أمام أكوام من الجيف النتنة، كيفما توجه نظرك دمار لكنه دمار مزمن دمار تاريخي غير دمار الدورة. شعرت بالغثيان صرخت من جديد:

- أرجوك توقفي قليلاً... لا أسرعي لم أعد قادراً على التحمل. هزت برأسها وأردفت:
- كم أضعفتك الغربة. تصور أن الإنسان اللبناني عاش هذا المنظر مدة خمسة عشر عاماً. تصور قدرة التحمل عنده،ثم ألم تلاحظ أنه وبالرغم من الدمار المميت الذي يشل حتى النظر، قد بدأ الأعمار وأصبح كل واحد يصلح ما تهدم عنده. ألم تلاحظ في منطقة فرن الشباك كم من المحلات المرممة وكم من البنايات التي تعج فيها ورش الترميم؟
- بلى. لكني لا أذكر أني رأيت ما رأيت. كنت شارداً افكر بما قلته: لا تريدين الزواج ولا تريدين الأولاد ولك طفلة وليس لك زوج فما كل هذه الألغاز؟ بربك لم أعد أفهم. لكن قولي هل عندك أصحاب أو رفاق؟
- البلد كله أصحاب، منهم القريب ومنهم الأقرب ومنهم القريب جداً ومنهم من يمر على جلدي مرور الكرام بدون أثر يذكر.
- أقصد من سؤالي هل لديك صديق محدد؟
- آه فهمت. نعم لدي صديق. قالتها وصمتت.

احترمت موقفها وصمت بدوري أفتش عن موضوع آخر أبعدها فيه عن ذاتها، فمر ببالي، لست أدري لماذا، أن نتباحث بالسياسة وبدور الأحزاب في لبنان. فكرت بالأمر فوجدته موضوعاً عاماً يمكن أن نتكلم فيه بدون ألغاز، أتى سؤالي على الشكل التالي:

- ألم تمارسي نشاطاً حزبياً معيناً؟ كنت أعلم جيداً أنها لو مارست نشاطاً كهذا لكان في حزب محدد لا غير.
- الأحزاب، قالت، وهزت برأسها كأني نقلتها من مأساة إلى أخرى.
- كان هناك حركة وطنية وتكتل أحزاب وتحالفات و... فماذا حل بها؟ لم نعد نسمع الآن بما كان يسمى حركة وطنية.
- لا تسمع لأنها انتهت بنظري، وليس فقط بنظري بل بالفعل، فبعد استشهاد كمال جنبلاط فرط عقد المسبحة وتشتت الأحزاب بالرغم من الاستمرار بتسميتها الحركة الوطنية. بعد ما أسموه بانتفضة بيروت سنة 1984، على ما أظن، تحولت الأحزاب إلى تكتلات طائفية متعصبة تتناحر فيها بينها وتخطف وتقتل. وكما كان يقال في بيروت يومها "حاميها حراميها". هكذا أفرغت الحركة الوطنية من دورها وهجرها من كان لا يرى ولا يريد لنفسه موقفاً طائفياً أو نضالاً من موقع طائفي، فأخذت الأمور مجرى آخر غير الذي كنا نعتقده في السابق أي في بداية الحرب.
- حتى الحزب أصبح طائفياً؟ سألت وأعلم جيداً أنها تفهم أي حزب أقصد.
- لا، لا أظن ذلك لكني تركت نشاطاته منذ فترة طويلة، تقريباً قبل الغزو الاسرائيلي للبنان بقليل.
- إذا مارست نشاطاً فلماذا تركت؟ سألتها
- شعرت حينها أني لست بحاجة إلى أب أو مرجع.

وبعد مرحلة تحليل صادق مع ذاتي اكتشفت أن انتمائي إلى الحزب كان فقط استبدال صورة الأب عندي بصورة أخرى. هذا ما شعرت به بكل صدق، فقررت الانكفاء. قتلت الأب لا لأستبدله بغيره. الأب الطبيعي لا يستبدل ولا يعوض.

تذكرت ساعتها تمردها في السابق على كل سلطة، وعادت صورتها في نقاشاتنا السابقة في الجامعة. شرسة كانت في الدفاع ولا تتساهل حتى مع نفسها ولا تقبل بالحلول الوسطى وتذكرت وقوف والدها إلى جانبها في كل خياراتها السابقة فخطر ببالي أن أسألها عنه.

صمتت دون أن تجيب ولاحظت دمعة على خدها. فهمت. فقالت وكأنها تخاطب نفسها:

- "كان والداً فريداً معطاء حتى الموت، لم يترك لي المجال لقتله، فقد سبقني وقتل هو ذاته معي منذ زمن بعيد، حين قال لي مرة بعد نقاش حميمي بيني وبينه: "فلنبدأ الطلاق إذا

كانت حياتك لا تطاق". وقتها زالت عنه صورة الأب تلقائياً وتحول هذا الكائن أمام إلى صديق كله صدق وإخلاص، أعود إليه في كل محنة. أرى وجهه وهو يبتسم عند عرض كل مشكلة، كان واسعاً كالبحر لا تهزه العواصف بالرغم من أن قلبه كان رقيقاً كالنور. لكنه كان جباراً يتحمل بصمت وكبر ويفرح بصمت وكبر حتى أن موته أتى بصمت وكبر، انطفأ كالنور كشمعة ذابت. تصور أنه صمت قبل موته بسنة، شلت ملكة النطق عنده. الأمر لم يكن مجانياً، فبرأيي لم تعد الكلمات قادرة على التعبير عنه فانتهى دورها وصمت بوعي كامل وإرادة ذاتية. فكما قتل نفسه معي وقتها من ذاته، هكذا فعل بنطقه حين كبر عليه وأحسه أعجز من أن يحكيه. فصمت عن الكلام، لكن عينيه بقيتا أفصح من أي كلام، أصبحتا كالمحيط هادئة تتسع لكل مآسي الوجود. عيناه لا تفارقانني لحظة، وكيف تفارقانني لقد جسدتا كل معاناة النضال بين الكون والفساد، هذه المعاناة التي تأكل معنا من صحن واحد وتشرب معنا من كوب واحد وتنام معنا على وسادة واحدة.

صمتت وكأن الكلام انتهى. لم أنطق بكلمة. أوجعني كلامها كيف أردها إلى حيث نحن وهي شاردة تقود سيارتها بآلية ظاهرة كأنها في عالم آخر.

- أين نحن الآن سألت هل ما زلنا بعيدين عن ملتقى النهرين؟

فقالت بصوت منخفض :

- أنا يا عصفورة الشجن مثل عينيك بلا وطن.

أحسست أنها استرسلت في حزنها وبنفس الوقت أننا اقتربنا من المكان، فلطالما سمعت هذه الأغنية منها حين كنا نأتي إلى هنا. هكذا كان، فما هي إلا دقائق قليلة حتى قالت:

- وصلنا. وتنهدت.

أوقفت السيارة بقرب مقهى جديد ونزلنا. سارت أمامي وتبعتها. دخلنا المقهى، كان شبه فارغ، توجهنا نحو طاولة قرب النافذة وقالت:

- أهذا المكان جيد؟

هززت برأسي وجلسنا بصمت. وما أن أتى عامل المقهى إلينا وطلبنا منه ما نريد أكله حتى استأذنتها وخرجت أتفقد المكان القديم ماذا حل به.

لم يتغير كثيراً بل أصبح مهمولاً ومهجوراً لا يأتيه أحد على ما يبدو. فقط صوت المياه بقي على حاله. كان المقهى الوحيد حين كنا نأتيه كعصفورين شريدين ولكن سعيدين. كم من حوار بيننا سمع هذا النهر... عدت إليها وقلت:

- المقهى انتهى لكنه بقي على حاله لم يتغير.
- ماذا تريد، المكان يتغير ببطء لا تلحظه حياة إنسان فرد أما الزمان فهو مرعب يذوب بسرعة ليتحول إلى ذاكرة منها للحفظ ومنها للنسيان، كما يقول محمود درويش، وما أقسى الشق الثاني، فكلما حاولت أن تتذكر الشق الأول احتل الصدارة وكأن محاولة نسيانه هي بالتمام آلية حفظه وترسخه.

لم تخرج من حالتها، قلت لنفسي لكن حاولت الكلام من جديد.

- ألا يأتي هذا المقهى بصارة كالتي كانت تأتي ذلك المقهى من زمان؟
- لا أدري، اعتقد أن أصحاب المقهى الحالي هذا لا يدعونها تدخل حتى وإن أتت فهذا المكان مطعم حديث وليس مقهى في الطبيعة كالذي تعودناه في أيام الشباب. لكن ليتها تأتي.

كانت في كل مرة نزور المكان تنادي البصّارة وتطلب منها أن ترى لها البخت كنا نضحك والبصّارة تجود بالأخبار الحلوة لأنها كانت تتقاضى أجراً جيداً. في يوم من تلك الأيام أتت البصّارة إلينا وكان وجه هبى ملبداً، فشرعت تبصر مستوحية من ذلك الوجه. قالت يومها: "أنت أمام دعاوي في محكمة والقضية صعبة لكنها بالنهاية ستحل كما تريدين". "تعني بعد كم إشارة؟" سألتها

ضاحكة. "لا أدري" أجابت البصّارة ولكني أرى إشارات عديدة. بعدها سألتها ما بها وما سبب وجومها فأجابتني: "كنت اليوم في المحكمة وقضية الطلاق تسير ببطء رهيب أما البصّارة فكيف عرفت.

- أتذكر تلك البصارة العجوز التي كانت أحياناً تصدق القول؟ سألتني.

أخبرتها بما تذكرت لكنها ضحكت وقالت.

- ألم تذكر شيئاً آخر.

فكرت قليلاً فلم أذكر شيئاً آخر فأجبتها بالنفي. ضحكت من جديد وفرحتُ لضحكتها لأنها أفرجت عن ذلك الوجه الذي كان عابساً ومغلقاً وقالت:

- ألم تذكر مرة حين غضبت وسألتني من هو الثالث؟

حينها تذكرت: قالت لها البصّارة يومها : "أربعة رجال سيمرون في حياتك وستبقين مع الرابع". وكل ما كنت أعلمه منها وعنها أنها متزوجة وأنها كانت تحب شاباً في فترة مراهقتها وأنا كنت الثالث في حساباتي، فغضبت يومها وسألتها من هو الثالث، لم يخطر ببالي يومها أننا سنفترق.

توجهت إليها من جديد وقلت : الآن أسألك هل من رابع؟

- نعم.
- ولماذا لا تتزوجين من إذا كنت تصدقين البصارة؟
- وهل أن الزواج هو شرط استمرار العلاقة؟
- ولكنه شرط للثبات والشرعنة.
- لا أؤمن بذلك. الثبات لا يحدده عقد خارجي. أما الشرعنة فهي ينظري العلنية وأنا علاقتي به علنية يعرفها كل أصحابي ومعارفي فلماذا الرباط الذي إن أردت التخلص منه قضيت حياتك في العراك والدعاوي؟ ثم سبق وقلت لك ما هي وظيفة الزواج فهو لا يشرعن العلاقة بل يشرعن إسماً للأولاد فقط.
- ومن هو،هل أعرفه؟
- لا، لا تعرفه.
- أين هو الآن؟
- خارج البلد.

كانت أجوبتها سريعة وحاسمة كأنها لا تريد الاطالة فألححت:

- هل هو من المحيط الجامعي أو الثقافي أو...
- لا
- وكيف تتفاهمين معه إذاً؟

أجابتني بضحكة عالية ملؤها السخرية وقالت بعدها

- لم أعهدك تقليدياً في تفكيرك إلى هذه الدرجة. أن أكون زوجة فلأن من المثقفين، حتى المثقفين الكبار والمهمين لا يعنيني.
- لا اقصد ذلك، أجبت، فقط التفاهم في العلاقة
- التفاهم لا يقوم على ما تعرف بل على ما تمارس وتفعل. أن تطابق الطبعان تم الانسجام أو لا انسجام إطلاقاً. لقد علمتني الأيام أن كل فرد هو مرآة ذاته فعبثاً يحاول أن يجدها خارجه وإن وجدت في الخارج فهي كلحظات السعادة النادرة تشع كالبرق وتنطفئ تاركة المجال للحياة اليومية الباهتة.
- إذاً علاقتك الحالية ليست كما...

لم تتركني أكمل وأجابت :

- أينما توجهت في الحياة ترى نتفاً من مرايا كل واحدة تعكس لك شيئاً منك وتعرف جيداً أن النتف في مادة المرآة لا تشكل كلا حتى وإن جمعتها فهي لن تتوحد اطلاقاً. لهذا السبب يختار المرء القطعة التي يرى أنها الأفضل بالنسبة له.
- قلت إنه لا ينتمي إلى العالم الثقافي أو الجامعي على الأقل، فكيف تم اختيارك له؟
- سأشرح لك باسهاب، عندما تكون أمام المرآة، والآن خذها بمعناها المادي العادي، تقف أمامها تتفحص جسدك أو تمشط شعرك أو تحلق ذقنك إن كنت رجلاً أو تزين وجهك إن كنت امرأة أو ترى إذا كانت ملابسك جيدة... وكل هذه الأشياء. لكن حين تبدأ عملك أو حين تكتب أو تقوم بأي عمل آخر فلا تشعر بضرورة المرآة وإن أحسست بحاجتها توجهت إلى المكتبات أو غيرها أليس كذلك؟
- فهمت، قلت، لها فأكملت حديثها.
- إني اخترت المرآة التي تعكس جسدي. أهملته طويلاً هذا الجسد لاعتقادي أنه غير مهم، كسرت كل المرايا التي كنت أنظر فيها إليه أو التي كانت تعكسه بدون أن أدري، حتى ضاق هذا الجسد بمكبوته وانفجر. علمت حينها وتأكدت أن الجسد هو خزان المكبوت كله والذي يتحكم بالمنطوق والممارس في حياتنا، فحضنته واستعدته وإذا بالمرآة التي تعكسه صافية لا تتعكر بسهولة ولا تنكسر بسهولة، صلبة وثابة هي. صمتت برهة ثم أكملت:
- وحتى إذا انكسرت لا تؤلم، بالضبط لأنها لا تحمل لا أحلاماً ولا أوهاماً فهي واقعية وهنا سر ثباتها وصفائها.

تساءلت هل هي مقتنعة بما تقول أو تقوله بهذه اللهجة والنبرة الواضحة لتقنع نفسها به؟ ولكني لم أقل شيئاً، وتركت السؤال معلقاً علني أكتشف الجواب بمفردي. فتابعت كأنها لا تريد أن تنتهي من هذا الموضوع:

- تعرفت على أشخاص عديدين بعد عودتي من فرنسا وبالتحديد على رجال عديدين وغالبيتهم من المثقفين أو الموجودين في أجواء ثقافية، فكانت خيبتي كبيرة معهم، تلاحظ كأن الثقافة عندهم هي قشرة برانية، يتلفظون بالكلمات الكبيرة ويعرضون النظريات الطنانة ويناقشون بجرأة وحدة ويعرضون عضلاتهم الفكرية باعتزاز وعزيمة. ولكن وعندما ينتهي الكلام يعود كل منهم إلى حجمه الطبيعي أي يعود إلى إنسان عادي جداً، إلى رجل شرقي بكل ما أخذت هذه الكلمة من معنى. ينظر إلى المرأة وكأنها سلعة لإشباع الشهوة ليس إلا. والويل الويل للمرأة إذا كانت مطلقة وتسكن وحدها، فإنها توحي لهؤلاء الرجال "الثقفين" كما لكل الرجال أيضاً أنها مباحة ويحق لكل منهم أن يطرق بابها ساعة يشاء وأن يحاول إغواءها. وإذا كانت من المدافعين تن تحرير المرأة فهذا يشجعهم أكثر ويعتبرون أن صيدهم أسهل. وأكثرهم يفهم أن "العلاقة الحرة" بين رجل وامرأة يعني علاقات مجانية وعابرة لإشباع الحاجة الجنسية فقط، أي بعبارة أخرى، وأوضح، يعتبرونها علاقات "شرمطة" ويسترونها بعباءة الثقافة لإعطائها طابعاً هو بنظرهم، وللتبرير فقط، أرفع من تلك العلاقات إلى تعج بها بيوت البغاء. قليلون جداً هم الذين يفكرون غير ذلك وهم يفكرون غير ذلك لا لأنهم مثقفون بل لأنهم يعشقون تماماً كالإنسان العادي غير المثقف. كل رجل يحب امرأة يحترمها ويصبح جسدها بالنسبة له مقدساً. يعني وباختصار كلي لم ألحظ أي اختلاف في علاقة الرجل بالمرأة بين رجل مثقف ورجل غير مثقف. يتغير الرجل فقط لأنه عاشق فيصبح إنساناً بكل معنى الكلمة ويتحول إلى شاعر رقيق وتتحول المرأة أجمل ما في بلاده وهو ليس شوفينياً وأجمل ما في عينيه وهو ليس نرجسياً أو أن بنظره يصبح البحر لا يسع بداهة عينيها ولا يعود للأرض ضرورة عينها، ويصبح حبه لها أول كلماته وكل كلماته أو أنه يحاول العشق إلى سنفونية للرقص والرفح. يصبحون كالأطفال يحلمون. ويبدو أن للأطفال وحدهم الحق بالحلم.

- تتكلمين عن هؤلاء بلطف وبعبارات جميلة، قلت
- لا، إني أنقل بعض كلماتهم فقط.
- ولكن لماذا...

فهمت ما أقصد وأجابت بسرعة :

- خلل في التزامن وكأنه القدر. أحدهم استشهد الآن رحمه الله ظل حتى لحظتها حميماً بالنسبة لي بالرغم من أنه مزق كل أوراقه بوجهي في لحظة عدم التزامن هذه واتهمني بعدم المقدرة على الحب. أما الآخر فهو أعز صديق لي الآن وربما خلل التزامن الذي كان بيننا انتهى أو لم يعد مهماً فأصبحت علاقتنا صافية غير متوترة ولكنها ودية جداً، أبوح له أحياناً بما لم أبح به لنفسي وأجد برفقته أحياناً بأني أحط رحالي أو كالرحالة الذي يجد مستقراً بينما كل الأماكن مشغولة.
- ألم تستطيعي إيجاد التزامن هذا وتصحيح الخلل فيه، سألتها.
- لا، لست أدري لماذا، لكن إذا عدت إلى أعماقي وكنت صادقة مع نفسي، أجد أنني كنت أتقصد عدم التزامن هذا بطريقة لا واعية. ربما كان ذلك بسبب الخوف وإبعاد لحظة الفراق قدر المستطاع، هذه اللحظة القاتلة التي تطبع الذاكرة بشكل يمحو فيها كل فرح اللقاء السابق، تصور أنني أحجم عن أي علاقة مهما كانت لأنني أرى نهايتها قبل البداية فأقرر الفرار من عذاب أصبح في قناعتي حتمياً. الفراق بضع في فمك طعم الموت وإن ذقته مرة رافقك كل حياتك. لماذا يبكي الإنسان عند لقاء من يحب بعد طول غياب. يقولون إنها دموع الفرح. لا! إنها انفجار معاناة الفراق السابق أو اللاحق، وهذه الحالة عشتها مرات عديدة حين كنت أشتاق لأخ لي في الخارج وأسافر إليه. حتى الن لم أنس فراقي له في أول رحلة، والآن كلما قصدته أجد نفسي في طريقي إليه أبكي لأن لحظة فراقه تؤلمني. وعينك لا ترى حالي في العودة... صمتت قليلاً لتبلع بريقها ثم أكملت: مجرمة الذاكرة، كأنها وضعت في تكوين الإنسان لعذابه فقط. هي لا تحفظ بشكل واضح إلا ما يمزق القلب وينغص العيش ويقتل التفاؤل. إن استطعت أن أحقق شيئاً في حياتي فلن يكون إلا رسم وجه والدي في لحظاته وداعه لنا، يا لها من ابتسامة تجسد كل سخرية الموت من الحياة، عيناه في تلك اللحظات تنيران الآن كل ذاكرتي عنه، فبهما أنظر إلى تاريخه وحياته الماضية. شردت قليلاً ثم أكملت:
- أفهمت الآن لماذا لم أعد أحب اللقاء. أعتقد أنك فهمت.

وضعتني مباشرة أمام معاناتها حين افترقنا، لم تكن تصدق وتقبل ما حدث. كانت تقول إن على المرآة أن تكون صافية كالبلور وإلا فمن الأفضل كسرها، وكسرتها بعنف أظهرته ببرودة كبيرة إذ حاولت اقناعي بكسرها، شارحة لي وقتها أن حياة الإنسان هي كخط ممدود والخطوط تلتقي وتتقاطع لكن التقاطع هو نقطة واحدة وبعدها يكمل كل خط طريقه. فإن أكملا معاً يكون أحدهما قد انكسر كلياً ليأخذ الاتجاه الذي للخط الآخر، أو يكون الاثنان قد انكسرا وغيرا مجرى اتجاههما نحو اتجاه جديد هو غير اتجاه كل منهما. كانت تطفئ عذابها بالتحليل البارد وتشرع لنفسها قبول أن تنكسر المرآة. لكن لم أدرك وقتها أن خيبتها كانت بهذا القدر، فشعرت بذنب كبير ولم أعد أدري ماذا أقول وشردت بدوري وأصبحنا، بلغتها خطين متقابلين.

لكنها ما لبثت أن أنقذتني من تلبكي وحيرتي وقالت:

- لغة العقل عابرة ولغة الشعور سديهم الحياة. وبناء عليه، علينا أن نرحل الآن، لقد تأخر الوقت وعلي أن أعود إلى ابنتي التي تنتظرني.

شعرت ساعتها أني لا أقدر على فراقها وقلت بغضب:

- من أين لك هذه الطفلة وما هو سرها؟

لم تجب مباشرة ولكنها قالت:

- إن أردت أن تعود معي فسأحاول تدبير الأمر.

صعدنا إلى السيارة وأخذت طريق بيتها بدون أن تسألني كأنها فهمت أنني أريد البقاء. علها هي أيضاً تريد المؤانسة.

- لم أفهم حتى الآن ما سر طفلتك هذه. قلت لها.
- أجابت: ليس عليك أن تفهم. يكفي أني أنا أفهم ذلك. لكن كي ترتاح وتغلق الموضوع سأخبرك: طفلتي ولدتها بعد حمل طويل دام سنين، خلالها لم أكن أشعر بها لأنها كانت في بطني لكن بعدها ولدت وكان عليها أن تولد. للأولاد حق الولادة متى حبل بهم، الأمهات لا يستطعن إبقاءهم في بطونهن كما يقول رشيد الضعيف في أحد كتبه. إذاً ولدت وكان تعلقها بي عظيماً، وكأنها أمضت كل حياتها السابقة تبحث عن أم وجدتها فجأة. حين تسأل هذه الطفلة عن أبيها تتكلم عن شخص رائع وتستطيع ملاحظة الاعتزاز في لهجتها بشكل واضح، وكأنها كانت بلا أم. حضنت هذه الطفلة التي وجدتها بين يدي وبنفس الوقت كنت أتذمر وأتمرد وأشتم القدر الذي نصبني أماً رغم أنفي. كائن واحد كان يفهمني ويخفف عني هو والدي، ألف رحمة على ترابه. كل ما رآني في حالة غضب من وضعي قال لي: إذهبي يا بنتي فأنا سأهتم بالأمر. كان لطيفاً معها، يلعبها ويلبي كل حاجاتها ويتقبل كل نزواتها في غيابي ويحاول أن ينسيها هذا الغياب حتى أعود. كنت بدوري اشتاق، بالرغم من رفضي وتمردي، إلى هذه الطفلة التي ليس لها أم سواي. أبعد عنها فأشتاقها وأعود إليها فتعذبني مأساتها وأرحل من جديد تاركة الحمل على والدي. لكن هذه الطفلة أحبها لأني حملتها وزر كل كسلي وتلكؤي وجعلت منها سبب عزلتي عن رفاقي وعالمي. حين يبلغ بين الأمر أشده من غضبي على ذاتي أؤنبها، وأحياناً تبكي وكأنها تعتذر عن ذنب لم تقترفه وأحياناً تنتفض وتصرخ: "لست بحاجة إليك اتركيني وارحلي" وكيف أتركها والليل يرعبها. بأي ضمير أستطيع أن أنام وأعرف أنها ساهرة تنتظرني ولو حتى الصباح، لأنها في قرارة نفسها تعرف رقة قلبي ولا أقول تستغله ولكنها تطمئن إليه، لكن الآن وبعد أن رحل والدي، أحاول أن أجد لها الأصدقاء لأخرجها من وحدتها في غيابي، لكنها طفلة صعبة لا يؤنسها بشكل جدي إلا وجودي، تمضي الوقت مع أصدقائها فقط لأنها متأكدة من مجيئي. الأمر ليس سهلاً، فبالرغم من حبي لها أجد أنها تعذبني. لا أستطيع أن أنصرف إلى عالمها، وعالم الأطفال جميل جداً، لكننا ما عدنا أطفالاً، استفقنا من الحلم منذ زمن بعيد، ولا أستطيع أن أنصرف إلى عالمي وحين أحاول ذلك يغزو عالمي وجهها المعذب أو أني أجعله يغزو عالمي لأفلت من وحدتي فأخرج. هكذا صبحت حياتي كأنها على خط مشدود بين فضاءين أحدهما أرفضه وثانيهما قاس وصعب ومليء بالألغام. فما أكاد أقطع الخط هذا نحو أحد العالمين حتى يحضر الآخر بإلحاح. عاطفتي تؤلمني وعقلي يؤلمني وها أنا خط مشدود على حد يضيق ويضيق حتى كاد يتحول إلى حد سكين بدأ يدميني.
- يا إلهي كم تغيرت. كانت تتكلم بتحد وكبر، فمن أين أتاها هذا الأسى. أهذا ما فعلته الحرب بها. كان عالمها عنيفاً جداً، لا تخافه بل تقتحمه بجرأة نادرة فما تتهيبه الآن؟ أهو العمر خفف المقدرة أم أن الحرب ومآسيها حطمت المقدرة على المواجهة؟ أم أن القمع أسكت العزيمة عند كل من كان قادراً عليها؟ من المؤكد أن حرباً شرسة دمرت ما دمرت في البلاد، فمن غير الممكن أن لا تطال إنسان هذا البلد وتدمره.

لم تتركني أسترسل في تفكيري وقالت:

الآن سنصل وسأعطيك مفتاح البيت، تصعد وحدك وأنا سأغيب بعض الوقت لأرى كيف أدبر الأمر. إن نجحت عدت إليك وإن لا فلك حرية التصرف. إذا اردت البقاء في البيت فافعل وإن أردت أن تذهب فاترك المفتاح على طاولة الصالون واغلق الباب وراءك. على كل حال سأعود ولو

للحظة لأخبرك لن أغيب اكثر من ساعة، تستطيع خلالها أن تختار أحد الكتب من مكتبتي وتقرأ أو تنام أو ترى التلفزيون... افعل ما تشاء.

- لا أريد أن أنام، وكتب مكتبتك لا تنتهي أريد أن أقرأك انت.

قلتها كمن يخرج من كابوس. فأجابت:

- أدخل إذاً إلى مكتبي وافتح الجوارير، كلها غير مقفلة، واختر ما تريد فليس عندي أسرار.
- ألن يأتي أحد في غيابك.
- إن طرق الباب فلا تفتحه. ما من أحد يستطيع الدخول من دون استئذان إلا صديقي، وهو الآن في سفر. لكن إن أتى، قالت ضاحكة، فقل له: "أنا ملحم" فهو يصر على تسميتك هكذا.
- هل من الممكن أن يكون قد عاد؟ سألت مندهشاً.
- لا أظن. لكن كل الاحتمالات واردة وهو دائماً يفاجئني.

أوقفت السيارة ونزلت. تركتني وذهبت. صعدت السلم أعد درجاته حتى وصلت. فتحت الباب بتهيب ودخلت. رائحة البيت عابقة بعطرها، حتى أن ترتيبه وألوانه تشبهها. جلست فترة قصيرة في الصالون ثم توجهت إلى غرفة المكتب. إنها غرفة صغيرة تحتل طاولة المكتب إحدى الزوايا ويقابلها في الزاوية الثانية حمالة للرسم عليها لوحة بيضاء وبالقرب منها عدد من اللوحات المكومة على طاولة صغيرة. فتحصت اللوحات بسرعة وجلست على كرسي المكتب. أأفتح الجوارير؟ أم لا. ترددت. لكنها سمحت بذلك قلت لنفسي. فتجرأت وفتحت الجارور الأول فإذا به مغلفات عديدة. الأول كتب عليه: "الجامعة" أهملته، الثاني كتب عليه "مقتطفات من الصحف"، فتحته فوجدت بعض المقالات لها ولغيرها، أهملته. الثالث مكتوب عليه "محاولات" وضعته جانباً والرابع كتب عليه "خاص جداً" وضعته على جنب أيضاً ثم وجدت عدداً آخر من الملفات منها عن الحزب ومنها رسائل ومنها أوراق عديدة..

شدني أولاً مغلف الرسائل، كلها كانت من أشخاص لا أعرفهم أغلبهم عرب وأجانب وبعض الرسائل من أخوتها. إنها لم تحتفظ بأي رسالة مني، قلت لنفسي. أعدت المغلفات إلى مكانها وتركت "المحاولات" و"الخاص جداً" على الطاولة.

فتحت الأول وقرأت:

الفصل السادس

الصفحة الأولى تبدأ وكأنها متابعة حوار سابق لكن رقمها واحد ومكتوب عليها "الفصل الأول": بدأت بها:

- كم مرة تدور الدائرة كي نفهم أنها حلقة مفرغة.
- لا نفهم رغم التكرار إنها دائرة مقفلة لأننا موجودون فيها.
- أهذا يعني أنني خرجت منها كي أقول ذلك وأتساءل.
- لا الامر غير ذلك تماماً، لأنك ما زلت تتلذذين بطعم دمك.

إنها المرة الألف التي أسمعك فيها تقولين ذلك وما زلت تدورين. ففي كل مرة تجنحين للحظة خارج الدائرة وسرعان ما تعود قوة الجذب لتشدك إلى حيث ترفضين، فتنسين نفسك وتأخذين بالغثيان الذي يعمي بصيرتك. مللت تفلسفك ولم أعد استمع إليك بعد الآن. فإما أن تخرجي نهائياً أو لا أريدك أن تعودي إلى وتشكين لي همومك التي أصبحت تجعلين منها محور حياتك وتتذمرين. إنك مازوشية وترفضين حقيقة ذاتك. أنا لم أعد أفهم تذمرك، ماذا تنتظرين؟ أتظنين أن الآخر هو السبب؟ لا، وألف لا. أنت سبب قهرك لذاتك، لا تحاولي اتهام أحد، لا الظروف ولا الحياة ولا الحرب ولا... إن الضعف فيك أنت. "مرتا مرتا تهمين بأمور كثيرة والمطلوب هو واحد". تهربين من حالك وتتهمين الآخرين. الآخرون لباسك وأنت تخافين العري لكنك ترين الأقنعة وهذا يعذبك. إن القناع درع ضد الغير وضد الذات أيضاً بينما العري درع ضد الآخر فقط. فاختاري.

- اختاري، اختاري، دائماً اختاري. أليس لي أن أرتاح لحظة واحدة من الاختيار؟ كيفما توجهت على أن أختار. كيفما سلكت علي أن أختار. لم يبق في بلدنا إلا الهواء والحرب اللذان ليس لي خيار فيهما. لقد تعبت حقاً. فليت من يختار عني.
- مراوغة. تجيرين اختيارات الغير لك وتقولين أنك تختارين قولي هل اخترت زوجك الأول.
- لماذا تحشرينني في سؤال واحد وفي موقف واحد. لقد تغيرت كثيراً منذ ذلك الوقت وتراكمت لدي تجارب كثيرة أحكم الآن من خلالها وليس من خلال موقف واحد، ثم إن زواجي لم يكن البداية، كان نتيجة لمرحلة.
- لماذا تتهربين من السؤال؟ تقولين إنك كنت سابقاً تختارين دائماً فلنبدأ من الأول. أريد أن عرف بالملموس هل أنت تختارين أو كنت تختارين حقاً. أنا لا أؤمن بالنظريات وبالتحليل المجرد. إن واقعية حتى الابتذال وأرفض كل تحليل لا يتعاطى مع الواقع كما هو.
- لا تتهميني بالتنظير فأنا أيضاً ضده. لقد مارست واقعياً وعملياً الحياة ودفعت ثمنها باهظاً ولم أنطق حتى الآن بكلمة واحدة تسمع. كنت أعيش أفكاري حتى لا تهم بما تتهمينني به الآن. لكني تعبت ولهذا السبب أتساءل هل أنا على حق أم أنت هي التي على حق؟
- إننا حقاً نقيضان بالرغم من صداقتنا وعدم افتراقنا ولو لحظة واحدة في حياتنا ولكني أنا مرتاحة وأنت معذبة. أنا راضية وأنت متمردة غير راضية ولا مكتفية. خففي عنك وتنعمي بملذات الحياة فإنها حقاً كثيرة.
- نقيضان حقاً ولكننا افترقنا في أوقات كثيرة ولم تنتبهي إلى ذلك لأني كنت أعود إليك دائما، أعود خائبة ومنهوكة أعود لأنسى نتيجة اختياري فاشل. كنت دائماً أوسع مني صدراً تحولين خيبتي انطلاقة جديدة.
- أنا لم أتغير ولا أريد أن أتغير، إني راضية بما أعطيت وأعرف كيف أفرح بأشيائي الصغيرة. إنها تملأ حياتي ولا تترك لي مجالاً للضجر أو الملل.
- أنت هكذا منذ طفولتك. أتذكرين تلك القرية النائية، قريتنا، حيث كنا نقضي فصل الصيف وتتورد وجنتانا بعد مضي شتاء رطب يخطف منا اللون والصحة في المدينة؟ كيف كنا نشعر بالرطوبة تخرج من اجسادنا حتى تتشقق شفاهنا وأيدينا وأحياناً تنزف فنعالجها بالمليونات لنخفف من ألمها ونفرح بالرغم من كل ذلك لأننا عدنا إلى المكان الذي كنا نشعر

فيه بأننا قمة السلم الاجتماعي بعد أن تكون المدينة قد حولتنا إلى رقم بين الأرقام ليس إلا. إني أكره المدينة وأحبها في الوقت نفسه. إنها كانت تردني إلى حجم صغير لكنها وبنفس الوقت كانت تخلق عندي روح التمرد ضد من هم احسن مني حالاً وأرقى مني تمدناً وأرق مني لفظاً ولهجة. كم كنت أخجل من لهجتي الجافة "الجردية" وأتمسك بها حتى أصبحت الآن أحبها جداً.

- أترين كيف أنك تختلقين المشاكل من لا شيء؟ إنني تعرضت مثلك لما تسميه خجل من لهجتك "الجردية"، لكن سرعان ما تخلصت منها ولم يمض وقت قصير علي حتى لم يعد السامع يفرق بين لهجتي ولهجة أهل المدينة. وأكثر من ذلك لقد حملت تلك اللهجة معي إلى القرية ونلت إعجاب من كان يسمعني هناك: إنها تتكلم مثل أهل المدن" كانوا يقولون، وأنا أفتخر بذلك وأبالغ حتى أصبحت هذه اللهجة لهجتي الخاصة. لقد اكتسبتها بدون عناء، بدون أسئلة وتفكير. أفهمي إن علينا أن نتكيف كي نرتاح وإلا...
- أهي اللهجة فقط أم أنك لكثرة تكيفك نسيت المشاكل الأخرى؟
- مشكلتك أنت أنك تريدين أن تكوني دائماً مميزة ومختلفة عن غيرك فتختلقين المتاعب لك ولغيرك. أنسيت قصة الروماتيزم في رجليك، تلك القصة التي ابتدعتها كي لا تركعي في الكنيسة وقت القداس الذي كنا مرغمين على حضوره كل صباح؟ أنا كنت أركع كما يفعل الجميع وأنت تظلين واقفة وحدك مشكلة نشازاً في صفوف المجموع. كنت أعلم جيداً أنك لا تشكين من الروماتيزم في رجليك بل في عقلك الرافض المتمرد.
- هل تعلمين أنني أخجل الآن من تلك الحجج المختلفة. إني أنتمي كما تعلمين إلى طائفة غير الطائفة التي تنتمي إليها المدرسة والمدينة التي اختارها أهلنا مكاناً لدراستنا. طائفتي، تعلمين جيداً ذلك، لا تفرض علينا الركوع في الكنيسة وطائفتهم تفرضه، وكنت أعتز بذلك إذ كنت أفكر في حينها أن إلهنا صديق لنا بينما إلههم سيد عليهم، ولكني لم أكن أجسر على الجهر بذلك، فلجأت إلى قصة الروماتيزم.
- لجأت إلى المرض والضعف حتى تكوني مختلفة. يا للسخف! ماذا خسرت أنا من تجاوبي مع المحيط الذي كنا نعيش فيه؟ لا شيء. بل على العكس من ذلك لقد نلت رضى الراهبات والمعلمين وأنت كان ينظر إليك دائماً بأعين محمرة
- لم تخسري شيئاً ولكنك تعودت على الخنوع والطاعة حتى وإن كنت غير مقتنعة بما تقومين به.
- اقتنع رويداً رويداً. فأنا أريد أن أعيش مرتاحة ولا أطلب المستحيل.
- أتعتبرين أن المطالبة بحقك كإنسان هو طلب المستحيل؟
- هناك إنسان وإنسان ولكل واحد حق يختلف عن حق الآخر.

كنت وما زلت تتذمرين من أمور كنت وما زلت أراها طبيعية جدا. كنا مثلاً نستيقظ في الصباح ونساعد والدتنا في ترتيب البيت ثم نذهب إلى المدرسة. فأي شيء غير طبيعي في ذلك؟ وإذا غابت الأم لسبب من الأسباب فمن يخوله دوره الطبيعي أن يتحمل مسؤولية البيت إن لم يكن نحن نساء المستقبل؟ كنت دائماً ترفضين هذا العمل وتشتكين منه.

- لم أكن أشتكي من العمل بحد ذاته ولا من نوعيته بل كنت أشكو من التمييز بيني وبين أخوتي الصبيان. فلهم كان كل الحق في أن يتفرغوا لدراستهم وأن يؤمن لهم كل ما يريحهم كي يحصلوا المرتبة الجيدة في المدرسة. أما أنا فكان علي واجبات بيتية تعتر أحياناً أهم من دراستي. ومع ذلك كنت أُلام من قبل الأهل إن لم أحصل على علامات جيدة. فكيف تريدينني أن أتكيف مع وضع كهذا؟ ولنفترض أن الأهل تساهلوا في قضية العلامات فكيف أحل الأمر بيني وبين نفسي أتيت إلى المدينة من قرية نائية متأخرة اجتماعياً واقتصادياً وحضارياً و... فكيف أخفي كل هذا إن لم أتفوق في الدراسة على أهل المدينة. تفوقي كان

المجال الوحيد لدي كي أخرج من دونيتي تجاه من هم أرقى مني اجتماعياً. أي مجال آخر كان متاحاً لي؟ لم اختر هنا، فرض علي الحل فرضاً.

- إنك معقدة حقا. فأنا لم يمض علي شهور قليلة حتى ترقيت اجتماعياً واندمجت في أجواء المدينة، صرت أفوق أكثر الفتيات تمدناً في الأناقة والرقص ونعومة الصوت و... في كل شيء آخر. عملية التقليد سهلة جداً، ول تلبث ن تصبح عادة ثم تشعرين بعد فترة أنك أنت هكذا بدون أن تكلفي نفسك أي عناء، أي أن ما حاولت تقليده يصبح فيك طبيعتك. لماذا اخترت انت الطريق الصعب؟ "حطي عن جحشتك" كما يقولون في ضيعتنا، لا شيء يحرز. أم أنك تريدين مني أن أكون مثلك وأظل صامتة في الملعب كي لا أتكلم خطأ اللغة الفرنسية المفروضة علينا. كنت أستعمل جميع الاساليب والإشارات والكلمات المقطعة المشوهة وأتفاهم مع الغير ولم أخذ "السينيال" مرة واحدة في حياتي، بينما أنت تصمتين وإن سألك أحد شيئاً ما، تركبين الجملة أولاً في ذهنك وتجيبين بعد وقت طويل، حين يكون السائل نسي سؤاله، فيبتعد عنك الجميع ويتهمونك بالتكبر وعدم الرغبة في الاختلاط بالآخرين.
- تلك اللغة اللعينة. هل تذكرين كم كنت سهلة على لسان بعض التلميذات وكم كن يلفظنها بطلاقة وثقة؟ كم مرة هزئن منا حين كنا نتكلم وكم كلمة أصبحت "نكتة" يتداولنها ليظهرن تفوقهن. ألم يؤلمك هذا أم تعدينه من أمورك الطبيعية؟
- يؤلمني وبالرغم من ذلك أعتبره طبيعياً. فهن كن قد تعودن هذه اللغة الأجنبية منذ أن نطقن ويتداولنها في بيوتهن مع الأهل ومن هنا كانت طلاقة لسانهن فيها. أما نحن فكان علينا ان نكتسبها أولاً، وكل اكتساب وتعلم يمر بالتجربة والخطأ. وهنا كان مجال اختلافي معك. أنا تكلمت وأخطأت وصححت وتعلمت بالنهاية أن أتكلم هذه اللغة بسهولة بينما أنت ذهبت إلى القراءة بنهم كفجعان لا يرتوي. وها أنا الآن أتكلمها جيداً وبارتياح وطلاقة بينما أنت تكتبينها جيداً وتتعثرين في كلامها. أي الحلين أفضل؟ أنا شخصياً أفضل الكلام على الكتابة، إني لا أحتاج إلى الكتابة إلا قليلاً في حين أني في أمس الحاجة إلى الكلام المنطوق. لا نتعامل مع الآخر على الورق لكن مباشرة وبواسطة السهولة في الكلام وطلاقة اللسان. أم أنك ستقولين لي أنك كنت ترفضين الكلام بتلك اللغة لأنك ترفضين لغة الاستعمار وتريدين تعريب الدروس والرجوع إلى الأصالة العربية وتعميم التعليم المجاني كي يطال كل الفئات الاجتماعية. كل هذه الحجج أعلم جيداً، اكتشفتها فيما بعد ولم يكن رفضك حينذاك إلا دليلاً على شعورك بالدونية ومحاولة منك لإخفائها.
- لا أقول العكس. لكن لا تظلميني كثيراً. فمن منا لم ينفذ الإضراب حين أغلقت المدرسة أبوابها اجتجاجاً على طلب تعريب المواد التدريسية؟ ألم أكن التلميذة الوحيدة التي أتت المدرسة يومها لتسجيل أنها لم تضرب وأنها مع التعريب؟
- هل أفهم من ذلك أنك كنت واعية تماماً ما كنت تقومين به؟ وهل نسيت دور أخيك في توجيهك نحو ما كان هو يريد؟ إنه كان مع المد العربي ومع الأمة العربية ومع التطلعات الوحدوية ومع الحركات التحررية، أنسيت تأثيره عليك في هذا المجال أم تريدين إيهامي بأنك كنت تتصرفين من ذاتك ووفقاً لقناعاتك؟
- أنا لا أتنكر للدور الذي لعبه أخي الأكبر في توجيهي، ولم أنس تلك الكتب التي كان يعطيني إياها للقراءة. لقد قرأت، تذكرين ذلك، بعض كتب ماركس وهيغل وبرغسون وميشال عفلق وأنطون سعادة وزكي الارسوزي وسارتر و... كل هذه الكتب كنت أجدها عند أخي وكان يشجعني على قراءتها ولكنه لم يفرض علي شيئاً محددا، كنا نتحادث ونتلاقى في أمور كثيرة. ألم أكن أخوك في نفس التوجه الذي كان فيه أخي؟ فلماذا لم يؤثر فيك ولماذا رفضته ورفضت أفكاره مفضلة الانغماس في الجو السائد وقتها في المدرسة وفي المدينة بوجه

عام؟ أنا لم ألومك الآن فالتيار في محيطنا كان أقوى منا. ولكن أرجوك لا تهزئي من تصرفاتي، لم تكن حينها بداعي اظهار النفس ولا بداعي الرفض لمجرد الرفض، ولكنها كانت تجسيداً لموقفي من الأشياء. وأقر أن هذا الموقف لم يكن واعياً تماماً، كان مجرد احساس بالأشياء يختلف عن احساس الآخرين بها. كنت أحس بانتمائي العربي وأفتخر به بينما كان الآخرون يناقشونني في ذلك ويرفضون هذا الانتماء "نحن فينيقيون ولسنا عرباً" كم مرة رددت هذه العبارة على مسمعنا؟ إننا لسنا عرباً لأننا لسنا مسلمين. لكن أتعلمين أن هذه العبارة الأخيرة اسمعها الآن. لكن من بعض المسلمين المتطرفين ومن أساتذة في الجامعة. يقولون لي أنتم لستم عرباً لأنكم لستم مسلمين. تصوري كيف أن الخطين النقيضين يلتقيان. يا للسخرية. فماذا يريد هؤلاء الفينيقيون إلا قولاً كهذا. إنه أطروحتهم منذ زمن بعيد. لكن ما لنا ولهم الآن. أتذكرين؟ كان ذلك أيام عبد الناصر وأيام المد العربي وقرابة الوحدة بين مصر وسوريا و...

- يومها كنت ستطردين من المدرسة بسبب غبائك وتحمسك لذلك القائد عبد الناصر. لقد بلغت فيك الحماسة يومها درجة الوقاحة فأجهدت نفسك في رسم وجه ذلك المغضوب عليه في مدرستنا وجئت بها تفتخرين في الصف وبأنها من صنعك. لقد كان رسماً ناجحاً، اعترف بذلك. ولكن أتذكرين حين دخلت الراهبة وفاجأنا، كيف انقضت على الرسم وأخذت تعنفك كما لو أنك اقترفت أكبر ذنب في حياتك. "كل شيء يعقل أما هذا فقد فاق كل معقول"، قالت، "وقحة ومشاغبة وميولك ضدها وضد ديننا ودينك، إنك تخربين جو الصف، لم أعد أطيق هذه التصرفات، اذهبي حالاً إلى البيت وابعثي لي والدك، فلا أظنه يرضى أو حتى إنه يعلم بما تفعلين. لن تبقي بعد الآن لحظة واحدة في المدرسة. اذهبي ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن". يا إلهي كم كانت شرسة تلك الراهبة، لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها وجهها بهذه الحالة وحركاتها بهذه العصبية.
- أما فضل طمس تلك القصة فيعود لك أنت. تدخلت وحاولت اقناع الراهبة بعد أن هدأت قليلاً بعد معاقبتي وبأنني لن اقوم بعد الآن بأعمال من هذا النوع وطلبت منها أن تحاول مرة وتسامحني فإن عدت وتصرفت بما يؤذي الصف ويعكر الجو العام فما عليها إلا أن تتخذ الإجراءات التي تراها مناسبة. وعدتها بأنك لا تتدخلين مرة ثانية، أتى سماحها مذلاً. مزقت الرسم أمام كل الطالبات وقضت على أول محاولة فنية قمت بها في حياتي. كان رسماً ناجحاً أمضيت ليلاً بكامله لأنجازه بدون أن يراني أحد.
- هل ندمت على تدخلي؟
- لا. إنه كان المنقذ الوحيد في تلك الأيام وبخاصة في تلك اللحظة التي أشعرتني بالضياع. ماذا أقول لأهلي؟ ماذا أقول لهم وماذا أفعل وأنا على أبواب امتحانات الشهادة التكميلية. لم يكن لدي حيلة أعترف الآن أنك أنقذتني حقاً.
- ونجحنا في الامتحانات وعدنا إلى ضيعتنا وأتى المهنئون ليباركوا لنا بالشهادة، كنا الفتاتين الوحيدتين في الضيعة اللتين وصلتا إلى هذه الدرجة من العلم.
- كنا الوحيدتين في المنطقة كلها على ما أظن. منطقة فقيرة، لا يستطيع أهلها أن يهتموا بتعليم أولادهم، فهم بالكاد يرسلون الصبيان إلى المدرسة. أما الدولة فقد نسيت تلك المنطقة وأهملتها. فلا مدارس ولا مستشفيات ولا مياه شفة ولا كهرباء ولا هاتف ولا حتى طرقات. ولكنها كانت جميلة بالرغم من كل تأخرها وضيعتنا كانت أجمل الضيع.
- جميلة؟ وما هو معيار الجمال لديك. قرية صغيرة بعيدة عن الطريق العام، بيوتها من الطين، طرقتها مفروشة بالبحص وهواؤها جاف ومليء بالغبار. التلال المحيطة بها لم نبت فيها عرق أخضر...

- هذا هو جمالها. إنها قاسية ووحشية. إنها جميلة لأنني أحبها فأنا لا أبحث عن جمال خارجي وجمالها كان في قلبي. لا أذكر في حياتي كلها انني تنفست بارتياح كما تنفست فيها ولم أرتو بماء كمائها الذي كنا ننقله بالأوعية من الدار إلى البيت وفيما بعد بواسطة مضخة، كنا نتسابق على الضخ فيها. ليس للجمال مقاييس مسبقة ولا معاييرمحددة، أنا أحب فأرى الأشياء جميلة، كل ما أحب هو جميل وعلم الجمال ليس علماً حقيقياً إنه تسجيل لمختلف المفاهيم التاريخية حول معنى الجمال وكلها تدور حول تنوعات مختلفة لمعنى التناغم، والتناغم بنظري، لقاء بينك وبين الخارج، فحين يتم هذا اللقاء تصبح الأشياء جميلة وحتى أنت تصبحين جميلة.
- أنا لا أجد ضيعتنا جميلة إلا في شهر أيلول.
- حقاً إنه شهر الحركة في الضيعة، شهر المونة لشتاء طويل، شهر القورما والمربيات وصنع الجبنة واللبنة والكشك والبرغل. كل سطوح البيوت تملأ بالبرغل الممدود على بسط من شعر وتكتسي طرقات الضيعة "بالرويشة" يتلاعب بها الهواء ويرميها في العيون ويكثر الرمد والعيون الحمر.
- خارج هذا الشهر، لا حركة ولا سلوى ولا...
- إن الحركة قليلة ول سلوى في ضيعتنا إلا السهرات وخاصة في شهر أيلول أيضاً الذي هو شهر المجنون. تذكرين مجنون الضيعة "أبو عاد"، جنونه كان لا يستيقظ إلا في شهر أيلول فيصبح ذا قوة جسدية كبيرة ويتسابق الناس على دعوته إلى السهرات كي يضحكون ويتسلوا ويستغلوه في بعض الأشغال الصعبة.
- أذكر، لكني كنت أخاف ذلك المجنون بالرغم من أنه لم يكن يؤذي. لكني أفضل أيام الأحد في القرية على تلك السهرات الصاخبة.
- أيام الأحد؟ ماذا فيها؟ قداس في الصباح ونزهة بين البساتين بعد الظهر وماذا بعد؟
- قداس يوم الأحد في قريتنا كان "همروجة" الأسبوع كله. يتلاقى الناس في باحة الكنيسة ويتحادثون ويمرحون بعد القداس كلهم بثياب جميلة.
- قداس يوم الأحد كان يوم الاستعراض. كل فتاة تحاول أن ترتدي أجمل ملابسها وأن تنقش وجهها بالألوان الزاهية كي تصطاد العريس المناسب. يدخل الناس إلى الكنيسة فيصطف الرجال في المقدمة وتأخذ النساء والبنات المحلات الخلفية. أما العروس – وتكثر العرايس في الصيف – فتأخذ أول صفوف النساء، على رأسها قبعة مع برقع ووجهها كوجوه اللعب من كثرة المساحيق الرخيصة. وترتدي دائماً في أول قداس لها بعد الزواج فستاناً أسود. لم أفهم تلك العادة في ضيعتنا، لماذا ترتدي العروس فستاناً أسود. إن البنات في قريتنا لا يرتدين الأسود إلا حداداً. فلماذا إذا هذا التقليد ولماذا الفستان الأسود الرسمي، كما يسمونه، هو من أولى ضرورات جهاز العروس؟
- دعينا من الفستان الأسود، الأعراس حلوة في ضيعتنا. إنها تشغل كل أهل الضيعة بخاصة النساء. يذهبن كلهن ليلة العرس إلى بيت العروس ليرين جهازها المعروض على جدران الغرفة فينتقدن هذا العرض غالباً وقليلاً ما يعجبن به. أما العروس فالويل لها في تلك الليلة. "تصمد" على منصة عالية بعد أن يكون وجهها قد طلي بكل أنواع المساحيق حتى أنه يفقد كل طابع حي فيه. تسمر على منصتها بين جهازها المنثور استعراضاً وتبدأ النسوة بالأغاني والزغاريد. ثم ما تلبث العروس أن تنزل عن منصتها وتغير ثوبها وتعود إلى مكانها وهكذا عدة مرات كي تظهر للآخرين كم لديها من ملابس جميلة، ويدوم ذلك حتى الصباح تقريباً، حين يأخذ أهل العريس ويأخذونها في ثوب أبيض إلى الأكليل، فيزوجها الكاهن وتبدأ المباركة. تأتي العروس بصحبة العيس إلى بيته وتجلس في الدار معه فيؤم الدار كل أهل الضيعة مهنئين، ثم تعود الحياة إلى دورتها الطبيعية الروتينية ويظل العرس

حديث النسوة بوجه عام حتى يأتي حدث آخر يتسلين به. والأعراس كثيرة في فصل الصيف. خاصة في شهر أيلول لأنه على "أبواب الشتاء" وشتاء ضيعتنا قاس وبارد وأحياناً مثلج، فيركن الناس إلى مخابئهم حتى يكادوا يختنقون من قساوة الطقس عليهم ويؤجلون مشاريعهم إلى بداية الصيف الثاني والطقس الدافئ.

- أعلم لماذا تحبين الأعراس وكل الحفلات العامة في ضيعتنا. إنها المجال الذي تظهرين فيه تفوقك على الآخرين وتشبعين فيه نرجسيتك وتعوضين فيها عن دونيتك في المدينة، أنت في المدينة رقم هامشي، أما في حفلات الضيعة فتكرمين لأنك بنت "وجيه الضيعة" ولأنك تختلفين عن البنات الأخريات بسبب ذهابك إلى المدينة وإلى المدرسة ولأنك تتعلمين ولأنك جميلة أيضاً. الكل يحتفل بك وبأمك التي ترافقك دائماً وتفتخر بجمالك الذي يتحدث عنه كل أهل الضيعة وكأنك النموذج الجمالي الوحيد، فتزيد أمك من جمالك الطبيعي وتزين شعرك بالشرائط وتلبسك الفساتين المنقشة المزركشة المختلفة عن ملابس بنات الضيعة فيكون ذلك محط اعتزاز لك ولها.
- وماذا يضيرك أن أكون جميلة وأن يعجب الجميع بجمالي ويقدرونه وأنت أيضاً جميلة والكل يعتبر أننا أجمل بنات الضيعة ووالدك أيضاً وجيه في الضيعة، وتكرمين مثلي وأمك تفتخر بك مثل أمي فلماذا تتهمينني بما أنت فيه؟
- كنا كلانا نسمع المديح، فكنت تنفخين صدرك وتعتزين بدون وجل بينما كنت أنا أحمر وأخجل. أنت تريدين التفوق في القرية وكنت تملكينه أما أنا فكنت أريد التفوق في المدينة ولم أكن أمتلكه، القرية لا تشكل تحدياً بالنسبة لي أعود إليها لأعيش فيها ذاتي بدون عقد، وأنت تعودين إليها لتمارسي ما أكسبته إياك المدينة من اختلافات. أعود إليها لأنسى محاصرتي الدائمة في المدينة أعود إليها لأصبح انساناً لا رقماً، وتعودين إليها لتحاصرين نفسك وتحصينها ضد الغير، تنقلين إلى الضيعة تصرفات الغير في المدينة، تعودين إليها لتجعلي من أهلها أرقاماً، وكأنك تعوضين عن قمع لا تقرين به، وقد نجحت أحياناً في جري إلى مرافقتك. لم يكن لي صديقة غيرك. إننا من نفس المستوى الاجتماعي في الضيعة وإننا في نفس المدرس وفي نفس الصف ونتمتع بنفس المقومات، لم يكن يسمح لي بمرافقة غيرك، ظروفنا فرضت علينا التقارب والتلاصق وأحياناً الاندماج والتطابق.
- أنت تنسين نفسك في القرية وتحاولين طمس كل ما يميزك عن غيرك إلى درجة أنك أغرمت بشاب من الضيعة لم يكن بمستواك، وأنا أنقذتك منه ومن طيشك.
- أتعتبرين ذلك طيشاً؟ تعلمين جيداً أنها كانت المرة الأولى في حياتي التي شعرت فيها بنبضات قلبي. هل أتنكر لبدني؟ هو الذي تحرك بدون أن أريد ذلك... عدنا يومها من القداس فرأيت أمام باب دارنا شاباً وسيماً، كنت أراه لأول مرة في الضيعة، وعلمت لاحقاً أنه كان يتعلم خارج البلدة في أحد أديره الرهبانيات، وكثيرون من شبابنا كانوا في وضعه، بسبب عدم إمكانياتهم المادية. كانوا يذهبون إلى الأديرة ليتعلموا مجاناً... شددت إلى هذا الشاب، فرحت بنظراته وابتسامته الجميلة الرقيقة. لم تنتهي أنت له فلم يكن يهمك ذلك، لأنك كنت مصممة ومقررة أنه لا يوجد في الضيعة شاب بمقدوره أن يكون زوجاً لك أو حتى صديقاً لفترات فراغك. أما أنا فانتبهت له لأن جسدي نبهني. حتى الآن لم أنس تلك اللحظة، وهل ننسى لحظات التغير المفاجئ في الجسد، هل نسيت أول يزوغ ثدييك، هل نسيت أول مرة حضت بها؟ أنا لم أنس. فالحدث الأول أرعبني وظننته مرضاً مخيفاً حتى طمأنني الأهل وأفهموني ماذا يحدث. أما الحدث الثاني فكان أكثر تأثيراً في نفسي لأن كنت جاهلة بإمكانية حدوثه. فلا الأهل نبهوني إلى ذلك ولا المدرسة فعلت وهي التي كانت ترفض كل تثقيف جنسي معتبرة إياه مدنساً أو عيباً. هل تذكرين تلك الراهبة التي كانت تقول لنا: "لا تنظرن إلى أجسادكن وأنتن في الحمام؟ أتذكر ذلك الآن وأضحك... حين

رأيت ذلك الشاب "ضاهر" ارتعش قلبي وبدأت أراقب مروره أمام البيت وألاحظ نظراته وكأني متأكدة أنه وقع في هواي وأن حاله كحالي... سرعان ما تصادق ضاهر مع أخي وأخذ يتردد إلى بيتنا، ويتحايل ليمضي السهرات معنا على سطيحة الدار حيث كنا نشوي الذرة على الفحم وكان هو الذي يأتينا بها من بستان أهله. كنت لا أنظر إليه مباشرة وهو كذلك. فهو لم يكن يجرؤ على البوح بما يشعر وأنا كنت أحاول اظهار لامبالاتي وعدم اكتراثي به، وهل يجوز أن تظهر الفتاة عشقها؟ طبعاً لا. فعليها أن تتمنع وتنتظر مبادرة الآخر، عيب عليها إن هي بادرت وأبدت حبها أو اعجابها بالشاب. ولكن لم يدم انتظاري طويلاً. ففي أحد الأعراس في الضيعة رأيته فجأة بجانبي ولاسمت يده يدي فابتدأت أحس أن لي جسداً وأخذت أعتني به وأهتم بملابسي وأناقتي حتى سمعت منه أني جميلة ففرحت للمرة الأولى بهذه الملاحظة ولم أخجل منها كما في عادتي. إنه لم يقل يوماً إنه يحبني، فهو أيضاً تلميذ رهبان وتنقصه الصراحة والجرأة على البوح بأحاسيسه، فالجسد أداة الخطيئة، لكنني كنت أدرك تماماً أنه يحبني وتأكدت من ذلك حين أخبرتني بأنه أتى اليك وباح أمامك بهذا الحب. فرحت جداً يومها لكني لم أظهر فرحي وأذكر أنك أنت لم تفرحي وقلت له إن هذه الفتاة صغيرة وإنها ما زالت في المدرسة تتعلم. لقد داورت كثيراً لتفهميه أنه لا يستحقني وأنه لا يملك شيئاً سوى شبابه ووسامته، لم تجسري على قول الأشياء مباشرة. حاولت اقناعه بالابتعاد عني لكن هو لم يقتنع: "وأنا ما زلت صغيراً وسأتابع دراستي وسأكون رجلاً عظيماً" قال ذلك وظل يحاول. أعجبني جوابه بدون أن أفصح بكلمة واحدة. إنه شاب طموح ويحق له ذلك فلا الذكاء ينقصه ولا الشباب. ينقصه المال والجاه وهما كانا أتفه الأشياء في نظري. كان يكفيني أنه أول من أيقظ الحب في قلبي وأول من دخل حياتي وأصبح ملاصقاً لذاتي. لم ييأس منك وذهب إلى جدتي يطلب منها التدخل لصالحه. فهو لم يجسر على مواجهة والدتي أو والدي، فالأولى كانت تعرفه بقوتها ووقاحتها بخاصة في موضوع يتعلق بابنتها. نصحته جدتي يومها بالعدول عن مشروعه ونسيان الموضوع لأنه من المستحيل أن يقبل به أهلي. لم يهزم وظل مثابراً في ملاحقتي ودخول بيتنا بحجة صداقته مع أخي. انتشر الخبر في الضيعة وعلم به كل الناس، ففي ضيعتنا، كما تعلمين، يكفي لشاب ما أن يزور مرتين أو ثلاثاً بيتاً فيه فتاة، حتى يبدأ اللغط حول هذه الزيارات وتبدأ الأسئلة والنقاشات، فكل واحد رأيه في الموضوع، وكان اجماع على أن قضية ضاهر فاشلة "مسكين لماذا يتنطح لهذه الفتاة، إنه شاب عادي ككل شباب الضيعة وهي تختلف عن كل بناة الضيعة فعليه أن لا يضيع وقته في مغامرة مستحيلة".

هكذا حكمت الضيعة وهكذا حكمت أنت، فكبر حبه لي وزاد تعلقي الصامت به. انتهى الصيف وحان موعد الرجوع إلى المدرسة وأتى ضاهر لوداع أختي يبدو أن يجسر على وداعي أو حتى التكلم معي أو النظر إلي. كان قلبه يتقطع مثل قلبي وكانت كلماته تختنق في حنجرته كما كلماتي. ركبنا سيارة والدي. كنت صامتة أتظاهر باللامبالاة. وقف ضاهر في باب الدار تماماً كما كان واقفاً في أول مرة رأيته فيها. كان ينظر إلينا قبل أن تقلع السيارة. تحججت بترتيب بعض الأشياء الموجودة في مؤخرة السيارة ونظرت إليه بدون أن يراني أحد، فتلاقت نظراتنا وتفاهمنا. كان حزيناً جدًا وأيضًا أنا كنت حزينة حتى البكاء. أقلعت السيارة وظل ضاهر معي. لم أنطق بكلمة واحدة. فقط أراه من باب الدار لا يجرؤ حتى على التلويح بيده وداعاً.

- ألهذه الدرجة أحببت ذلك الشاب. لم ألاحظ ذلك أبداً.
- لم يلاحظ أحد هذا الحب. لكن هل نسيت فرحي عندما أخبرتني بأنه في المدينة حيث كنا. وأنه في زيارة لأحد أقاربه.
- لم ألاحظ شيئاً، فأنت كتومة جداً وتتحكمين بانفعالاتك بقوة حتى كدت أظن أنك تكرهين هذا الشاب وفي أحسن الحالات لا تكترثين به.

- تحكمي بعواطفي وانفعالاتي هو نتيجة لتربيتي القاسية. جو البيت صارم وجو المدرسة قامع، لم نتلق في حياتنا إلا الأمر والنهي: "افعلي ذلك ولا تفعلي ذلك. على الفتاة أن تكون خجولة، أن تكون مهذبة، أن تكون مطواعة، أن تكون... إلى آخر هذه المعزوفة التي ليست إلى محواً لشخصيتها. الفتاة كما تعلمنا لا تحب فهي تحب فقط وإذا ما أحست بالحب فعليها ألا تظهره لأن إظهاره يحط من قيمتها. جسدها مرفوض وعليها أيضاً أن لا تحس به. إنه عرض العائلة وعليه ألا يدنس كي لا يدنس شرف العائلة. وحب الفتاة كان دنساً ووقاحة. على الفتاة ألا تنظر إلى الشاب ولا تتكلم معه خاصة ألا تلامسه قبل الزواج فهذا عار عليها وعلى عائلتها...
- تتكلمين الآن هكذا ولكنك كنت كثر البنات تمسكاً بهذه التعاليم.
- الآن أرى الأشياء بوضوح أكبر. أما من قبل فكانت قوة القمع تطغي على كل شيء. طبقت كل معايير التربية الممارسة علينا لكني بنفس الوقت كنت أحس أن لي جسداً وأني احب وأن لدي ميلاً إلى التحدث مع الشباب، كنت أقمع كل ذلك خوفاً من الفضيحة. كنت بيني وبين نفسي بلا تهذيب حسب المعيار الدارج للتهذيب لأنني كنت أشعر بكل المحرمات ولكن أمام الآخرين أنفي ذلك كي أحافظ على تلك الصورة التي كونوها عني والتي أرادها لي أهلي.
- أنا لم أشعر بالقمع كثيراً، فهذه هي تقاليدنا وعاداتنا. هل نتنكر لها؟ فما التربية إلا لخلق إنسان اجتماعي يسلك كالجميع ويتعايش مع الجميع بدون مشاكل. ولكل مجتمع أخلاقي لا يقوم إلا بها. أم أنك تريدين أن نعم الفوضى كل المجتمعات؟
- لا أريد الفوضى. فقط أتساءل لماذا لا تقوم الأخلاق إلا على القمع؟ لماذا أقبل باخلاقيات تتنكر للطبيعة وأرفض واقع الحال. هل قمع الأشياء والأحاسيس يعني الغاءها، لقد حاولت كثيراً أن أقمع حبي لضاهر ولم أنجح. فأين الحقيقة؟ كتمت عنك يومها فرحي بمجيئه إلى المدينة. فرحي كان الحقيقة وليس ما لاحظته أنت من عدم الاكتراث.
- ولكني وبالنهاية كنت أقوى منك وأقنعتك بالتخلي عن حبك له. فلو كان هذا الحب صادقاً وحقيقياً كما تدعين لما كنت وافقت على محاولتي.
- لا أدري الآن هل كان علي أن أجاريك وأنفذ تعاليمك أو لا ظلت من بعدها القصة عالقة بين ضاهر وبيني ولم أعد أعلم شيئاً بعد تلك اللحظة التي أتاني بها إلى البيت واستطاع أن ينفرد بي ليقول لي وكله وعد: "إني استطعت أن أحصل على منحة لأكمل دراستي في الخارج، سأسافر لأحصل العلم، فعديني بأنك ستنتظرين عودتي" كان واثقاً من حبي له. لكن يا إلهي كيف أعده، فالوعد بوح بأني أحبه وكيف أبوح بما لا أجسر على اظهاره. "لن أنتظر أحداً" قلتها وانسحبت بسرعة من ذلك المكان كي لا أرى ما حل به، وهكذا انهار كل شيء بكلمة جبانة كاذبة لكنها "مهذبة".
- أفهم إذا إنك الآن نادمة على تصرفك يومها؟
- بالحقيقة لست أدري. لكن أعلم جيداً أن الأمور لا تنتهي بكبسة زر. تظل عالقة تستيقظ وتخبو مع الأيام. القمع لا يقتل ميلاً فينا بل يغيبه فترة ليستيقظ في ظروف معينة. عندما يموت الإنسان شاباً نظل دائماً نذكره شاباً ونذكر ما كان أمامه من إمكانيات في الحياة نتحسر عليه لأنه لم يحقق تلك الإمكانيات التي هي من نسج خيالنا أحياناً كثيرة. ونقول قطف قبل أوانه. هكذا كانت قصة حبي لضاهر، وئدت في أولها وتركت للذاكرة باب الاحتمالات مفتوحاً. لست أدري إن كان شرط دوام العلاقة أن لا تتم أو أن تتوقف.
- سأتركك مع ذاكرتك وتفلسفك وأعود إلى منزلي لأحضر الأكل لزوجي وأولادي. قالت ذلك بعد أن نظرت إلى ساعتها وصفرت مندهشة من تقدم الوقت.
- ألا تستطيعين أن تتوقفي ولو ليوم واحد عن هذه الواجبات؟

- أنت تحررت من هذا العمل الذي تسمينه واجبات، وهو حقاً عمل مرهق يأخذ كل الوقت ويعيشني في جو مسؤولية دائمة. فاتركيني أذهب ولا تطيلي الغياب. أنا دائماً في البيت وتستطيعين المجيء ساعة تشائين.
- الله معك. سأزورك حتماً فمن لي سواك أستطيع أن أفكر أمامه بصوت عال.
- أقفلت الباب وراءها وعدت إلى عملي. إنه يوم الأحد فماذا أفعل بهذا اليوم الطويل، أشعلت سيجارة وأخذت أفكر بتنظيم هذا النهار الذي لا أحب. رن فجأة الهاتف: "معك المانيا لا تقفلي الخط". انتظرت بضع ثوان، سمعت بعدها صوته:
- "ألو كيف حالك، لقد حصلت على الفيزا إلى باريس وأنا ذاهب إليها غداً. فماذا أنت فاعلة؟
- اليوم الاحد أجبت وتعلم جيداً أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً في هذا الموضوع. الشركات كلها مقفلة... وعلى كل حال لست متحمسة للذهاب إلى باريس. لا تنتظرني".
- "سأتصل بك غداً لأعلم ماذا قررت. وإذا كان قرارك عدم المجيء حقاً فاحضري لي لائحة الكتب التي تريدينها من باريس كي آتيك بها".
- طيب
- إلى الغد. إني أقبلك.
- إلى الغد.

وأقفلت سماعة الهاتف بعصبية. "يا إلهي إلى متى ستدوم هذه اللعبة". لقد وضعتني في دوامة لست أدري كيف أعالجها.

انتهى نهار الأحد التافه. لماذا أكره هذا اليوم؟ إنه يوم الراحة، ينتظره الجميع ليكسروا به روتين أيام الأسبوع، فيزوروا بعضهم البعض وتجتمع العائلات إلى الغداء حاملة كل أحقادها الدفينة ويأتي الأولاد بصحبة الأحفاد إلى بيت الجد والجدة. يلتقي أولاد العم مع أولاد العمة وأولاد الخالة وتعم الفوضى في بيت الجد. ثم لا يلبث أن يعود كل إلى بيته استعداداً للبدء بأسبوع جديد: الأولاد يعودون إلى المدرسة والأهل إلى أعمالهم. هكذا تتم عملية الاجترار أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة. لماذا أكره هذا اليوم الآن ذلك اصبح عادة عندي. كنت أكرهه في مرحلة الدراسة الثانوية لأنه كان يوماً لا ينتهي من كثرة الضجر. أمكث في البيت وأنقطع عن رفيقاتي اللواتي كن يذهبن إلى السينما أو ينفذن برنامجاً آخر. كانت السينما هي السلوى شبه الوحيدة في ذلك الوقت – لم يكن يسمح لي بالذهاب إلى السينما، فإما أن يرافقني أحد أخوتي الصبيان – وكانوا دائماً مشغولين، لم أبقى مع الأهل ليصحبوني معهم، إذا ضجروا إلى بعض الأصحاب – أصحابهم – أو الأقارب لتمضية عصرية ذلك اليوم المشؤوم. كنت أكرهه في مرحلة الزواج لأنه يوم الواجبات مع الأهل. أهل الزوج وأهل الزوجة. ويوم عجقة السير على الطرقات حيث كنا نصل البيت مساء منهكين من وتيرة سير بطيئة تهد أعصابنا خلال ساعتين أو ثلاث. والوصول لم يكن أفضل، لم أحب البيت وغالباً كنت أمضي أوقاتي خارجه.

انتهى نهار الأحد وأتى الليل. ليالي بيروت مظلمة في هذه الأيام. فبعد معركة الجبل بين الدروز والمسيحيين انقطع التيار الكهربائي وعم بيروت برنامج التقنين. وزاد من شدة الظلمة حالة منع التجول في الليل بعد الساعة الثامنة. تحولت البيوت إلى سجون قسرية بعد أن أصبح البلد بكامله سجناً كبيراً لا ينجو منه إلا المهاجر إلى بلد ثان وما أكثر الهجرة الآن في لبنان. يهاجرون لأنهم لا يريدون الحرب المفروضة عليهم ولكنهم لا يهاجرون احتجاجا بل املاً بالنجاة من موت محتوم إذا ما ظلوا في هذا البلد الذي أصبح يحضن جميع التناقضات في العالم بدءاً من التنافر بين شخصين عاديين وصولاً إلى التنافر بين الجبارين. عجيب هذا البلد الصغير الذي بالكاد يتسع لعدد سكانه، فما به يحتوي الآن كل العالم ويفرغ من أهله. أسئلة كثيرة كل يوم ويجاب عنها كل يوم بطرق مختلفة.

فلكل طرف في النزاع القائم جواب ومنطق يختلفان حتى التناقض مع جواب ومنطق طرف آخر – وما أكثر الأطراف في بلدي. هل إن قصة بابل تتكرر في لبنان. لم أعد أفهم شيئاً.
اشتد الظلام في غرفتي. اشعلت لوكس الغاز. ماذا أفعل؟ أأنام؟ لن استطيع والنوم هروب لذيذ – نظرت إلى الساعة في يدي فإذا بها ما زالت قبل الثامنة. عي أن أقرر هل أخرج من البيت أو أبقى فيه. دقائق ويحسم الأمر تلقائياً إن لم أقرر الآن. لا أريد أن أبقى وحدي، لقد بدأت أمل هذه الوحدة التي حكمت على نفسي بها. الهاتف. الهاتف هو المنفذ الوحيد إلى الخارج. سأتصل بصديقتي:

- ألو ماذا تفعلين؟ سألتها.
- كنت سأطلبك لكن حرصاً مني على عدم التدخل في نطاق حريتك لم أفعل. هل أنت وحدك؟
- نعم
- إذاً تعالي إلى هنا وتنامين عندي
- هذا ما سأفعله. إني آتية.

أطفأت "اللوكس" بعد أن مسكت البطارية في يدي. أقفلت الباب ونزلت السلم. كل أهالي بيروت يستعملون السلالم في هذه الأيام، فالمصاعد عطلها انقطاع التيار الكهربائي. لكن مصعد بيتي ما زال معطلاً منذ حصار بيروت وتهديمها على يد اسرائيل في الصيف الفائت. نزلت السلم، أخذت سيارتي وتوجهت إلى بيت صديقتي. السيارات قليلة جداً في الطرقات المظلمة، كلها عادت إلى بيوت أصحابها قبل وقت منع التجول. وصلت إلى الشارع الذي تسكنه هذه الصديقة، سرت ببطء علني أجد محلاً أوقف فيه سيارتي. لم يكن هناك "مغز إبرة" فالسيارات تملأ جانبي الطريق – كم السيارات كثيرة في بيروت، ماذا أفعل؟ أوقفت سيارتي على باب مدخل ساحة مليئة بالسيارات وأقفلت بها المدخل مبررة عملي بأن لا أحد يخرج بعد هذا الوقت ولعى كل حال سأستيقظ باكراً وأذهب قبل أن يكون الناس قد احتاجوا سياراتهم.
صعدت السلم ووصلت "على آخر نفس". طرقت الباب بيدي، ففتحت لي مرتدية ثوباً فضفاضاً مريحاً وابتسمت.

- تأخرت قالت.
- كنت أبحث عن مكان لسيارتي
- غريب هذا الشارع. إنها مشكلتنا كلما خرجنا بسيارتنا من البيت.

دخلنا واستلم كل منا مكانه العادي في الصالون.

- أين الأولاد؟ سألتها
- لقد ناموا. عليهم أن يستيقظوا باكراً ليذهبوا إلى المدرسة.
- أين زوجك؟
- كالعادة، ذهب ليسهر مع بعض الأصدقاء.
- وكيف يعود مع منع التجول؟
- إنه في الحي ويعود سيراً على الأقدام. لا يوجد دوريات في الأحياء الداخلية، ليست مشكلة بالنسبة له.
- لماذا لا تسهرين معه؟
- والأولاد.

إنها عادة أهل بلدنا بوجه عام، الأم للأولاد والأب للخارج فصديقتي ليست الوحيدة في هذه الحالة، يسمح الرجل لنفسه بأن يخرج وحده من البيت، فهذه الأمور من حقوقه المشروعة جداً ومن واجبات المرأة المشروعة أيضاً أن لا تتذمر من ذلك وأن تلزم بيتها وترعي أولادها. ففي هذه الحالة يصبح البيت بيتها والأولاد أولادها.

- الأولاد قالت، ثم لا تسليني هذه السهرات. أحاديث في السياسة وتعليقات وتحليلات نسمعها من الإذاعات ونقرؤها في الصحف.

- وماذا كنت ستفعلين لو لم آت؟
- كنت سأقرأ قليلاً على ضوء "اللوكس" حتى أنعس وأنام، على كل حال إني أحب النوم باكراً.
- حالك كحالي بالرغم من أنك متزوجة ولديك أولاد وعندك رجل ووضع مستقر.
- لا. إن حالي ليس كحالك ووضعي يختلف عن وضعك. أنا واثقة من أن زوجي سيعود إلى البيت فليس عندي مشكلة الانتظار مثلك. أنت ترفضين الزواج وتريدين العلاقة الحرة غير الملتزمة، فلماذا جنيت حتى الآن إلا القلق والانتظار؟ هل تعلمين متى يأتي اليك صديقك؟ أنت دائماً منتظرة، فلطالما جلست هنا وشتمت هذه الحالة وما زلت تتمسكين بها. قولي هل اتصل بك؟
- اتصل لن أسافر. لقد ضجرت حقاً.
- تقولين هذا الآن. وغداً يأتي فتنسين كل شيء وتعودين إلى الدائرة من جديد. لقد حفظت تقلباتك. حين يكون بجانبك ويلازمك كخيالك ترتاحين ولا تطرحين أي سؤال وعندما يغيب عنك لسبب ما من أسبابه الخاصة الكثيرة، تبدئين بالتذمر وتطرحين كل قضيتك على بساط البحث وترفضين الحالة التي أنت فيها وتحاولين الخروج منها. ماذا تريدين بالحقيقة؟ إنك في أعماقك تريدين العلاقة الشرعية الثابتة المستقرة وتسلكين بعكس ما تريدين. ففي كل مرة تقترب الأشياء من الاستقرار تترددين وتنجلي أمامك كل سلبيت هذه العلاقة. ألم يكن من الأفضل لك لو بقيت مع زوجك، وعشت كما يعيش كل الناس؟
- إنها قصة قديمة ونهايتها كانت حتمية.
- أنت فرضت الحل السلبي. فما من زواج إلا ويمر بفترة يهتز فيها ثم تعود الأمور إلى مجاريها ويترتب كل شيء.
- يعني تدوير الزوايا. يمكن، ولكن بالنسبة لي لم يكن الاهتزاز عرضياً بل شكل شرخاً كبيراً كان من غير الممكن طمسه.
- أعلم أنك انت السبب في هذا الشرح، فلا تلومي أحداً؟
- أنا لا ألوم أحداً، ولا أحمل مسؤولية ما حدث إلا لنفسي. كان علي أن أختار منذ البداية ولكن تعلمين جيداً أن ظروفي لم تسمح لي بذلك فأتى الاختيار متأخراً، ولست نادمة على ذلك.
- ألم تختاري؟ من أرغمك على الزواج من ذلك الشاب، إني أذكر انك كنت متحمسة في فترة الخطوبة وتريدين حقاً الزواج بالرغم من كل ترددات غير المبررة.
- بل أكثر من ذلك. لقد أعجبني ذلك الشاب في البداية. كنت عندنا في الدار في تلك الليلة حين أتى برفقة زوجك الحالي إلى زيارتنا. لم يأت تلقائياً إلينا، فهو من خارج المنطقة ولا يعرف فيها أحداً، ولكن والدي دعاه إلى العشاء وهذه كانت عادة والدي عندما يأتي الضيعة أو المنطقة القريبة موظف جديد من خارج هذه المنطقة. لم تكن عادة والدي وحده فكل وجهاء الضيعة يتسابقون على تلك الدعوات كأنهم، بهذا العمل، يريدون تثبيت وجاهتهم واثباتها.

هل ما زلت تذكرين كيف توقفت السيارة الحكومية أمام باب الدار وخرج منها شابان ظريفان بلباس عسكري يختلف عن لباس عسكر القرية، على رأسيهما بيرايتان تحمل كل منهما أرزة مكللة بالغار وعلى كتف كل منهما نجمتان مذهبتان. إنها ضابطان ولم يسبق أن تخرج من ضيعتنا إلا ضابط واحد كان في تلك الفترة منقطعاً عن أهل البلدة ولا يزور القرية إلا نادراً. ضيعتنا فقيرة لا يخرج منها إلا الجنود العاديون وكانوا كثرة لأن الجيش كان يشكل لهم مورد رزق محترم.

باب بيتنا كما تعلمين لا ينغلق أبداً في الصيف وعادة أهل الضيعة أن يدخلوه بدون استئذان وبدون أن يعلموا بمجيئهم. أما هذان الشابان فقد توقفا أمام الباب – بالرغم من أنه مفتوح – وقبل أن ينقر

أحدهما الخشب بيده. كان والدي قد أصبح أمامهما يرحب بهما. دخلا بعد أن رفعا قبعتيهما وسلما على الجميع بتهذيب كلي.

- كانا جميلن بتلك الثياب وكانت حركاتهما كحركات أهل المدينة ولهجتهما أيضاً. أعجبني ذلك وأمضيت كل تلك السهرة عندكم.

أذكر ذلك جيداً.

- ل تخف أعجابك وبحت لي به هما أيضاً أعجبا بنا وعبرا عن اعجابهما، وردت والدتي: "هذه ابنتي مشيرة إليّ وهذه ابنة صديقتي مشيرة إليك". إنهما في نفس المدرسة ولقد نالتا السنة الماضية شهادة "البروفيه" وشمخت برأسها مفتخرة.
- كان يحق لها ذلك. عندما أخبرت والدتي بهما، طلبت من والدي أن يدعوهما إلى بيتنا فأتيا وسألني يومها "روبير" عنك وطلب مني أن أناديك فتمنعت. لإفهامه بأن البنات لا تزار إلا في بيت أهلها.
- أخذ الشابان يترددان على ضيعتنا بدون حرج، فالسلك الذي ينتميان إليه كان في "عزه" كما يقال، بعد أحداث 1958 في لبنان. الكل يتهافت عليكما لينال رضاهما والكل يحاول دعوتهما إلى بيته. أما هما فقد حصرا زيارتما ببيتينا، بحجة أنهما لا يريدان التعاطي إلى مع الوجهاء في الضيعة. وكثر الكلام بين الناس وحسمت الأمور لديهم قبل أن تطرح، ونصب الشابان عريسين وصهرين للضيعة. فرحت أمهاتنا بهذا اللغط ولم تجبن على أسئلة الناس إلا بابتسامة متعالية للتدليل على عدم اكتراثهما بالموضوع.
- ولم يتأكد الأمر لديهم إلا بعد أن أصابتك تلك الرصاصة الطائشة في رأسك في ذلك الصيف، حين تدخلا وحسما الأمر لصالح أهل الضيعة.
- أن لا أذكر شيئاً مما حدث.
- طبعاً لا تذكرين. نقلك أهلك بسرعة إلى المستشفى في المدينة ولم تعودي إلا بعد أن انتهى كل شيء. ولكن ما أن تركتم الضيعة حتى تحمس أخوك ودعا العائلة إلى محاصرة المخفر حيث كان يوجد الدركي الذي أصابتط رصاصة فرده بدون قصد منه. تجمع شباب العائلة وحملوا ما لديهم من أسلحة وحاصروا المكان بانتظار أن يأتيهم الخبر. فلو كانت اصابتك خطرة لكانوا قتلوا ذلك المسكين. ولكن والحمد لله على ذلك، لقد اتصل والدك، من المستشفى، بأخيك يومها وطمأنه إنك بخير. وما أن تفرق المسلحون يومها حتى وصلت فرقة من الجيش بقيادة روبير وسمير اللذين كانا مسؤولين عن أمن منطقتنا. وعوض أن يستدعيا المسلحين دبرا الأمور بالتي هي أحسن وقاما بعملية تفتيش شكلية وتقصدا عدم إيجاد السلاح ولم يوقفا أحداً من الشباب. حينها تحول الهمس في الضيعة إلى قول صريح وتأكدت عند الكل غاية هذين الشابين بدون أن يتفوها بكلمة واحدة بهذا الموضوع.

فجأة فتح الباب ودخل سمير وفرح بوجودي معها لأن ذلك يخفف من ضجرها ويخفف كثيراً م معاتبتها له على خروجه وحده وتركها في البيت.

- عدت باكراً قالت.
- إن الشلة لم تكتمل، ثم اشتقت إليك، قال ذلك وهو يعلم أنه يكذب وأننا لا نصدقه فضحكنا جميعاً وتداركاً لأي نقاش بادر بالكلام :
- من هشمتم حتى الآن؟ ألم تغربلوا كل الناس؟
- كنا نهشمك أنت وروبير، الله يعلن الساعة التي تزوجتك فيها قالت مازحة.

فهز برأسه ونظر إلي وقال : "هل يوجد أفضل مني زوجاً؟ أنا أيوب هذه الأيام".

- لا. بالتأكيد أجبت. كلكم واحد بالرغم من تمايزاتكم الفردية.
- تجاهل الرد وسأل:

- أين الأولاد؟ هل ناموا؟
- من زمان، ردت الزوجة، ونحن أيضاً نريد أن ننام.
- هيا تصبحان على خير قالها واقفاً.

دخلا غرفتهما وتوجهت إلى غرفة أحد الأولاد التي أخليت لي. تمددت على السرير بدون أن أستطيع النوم.

إلى متى سأبقى مشردة؟ هل إن هذا هو ثمن الحرية التي أطلب. إنه باهظ جداً في بلد لا تصبح فيه الأنثى إنساناً إلا بتبعيتها لذكر. هل كان من الأفضل لي أن أبقى زوجة روبير وأمارس حياتي كما تمارسها الآن النساء "الفاضلات" زوج علني وعشيق سري؟ لا لن أكون إلا في النور وليفعل الآخرون ما يريحهم.

لكن لماذا لم أرفضه منذ البداية؟ أحقاً لم يكن باستطاعتي ذلك أم إني لم أرفضه لعدم قناعتي بالرفض؟ كيف أرفض من كنت أراء مدخلا إلى حريتي ونافذة على العالم، ثم إنه لم يكن لي مفر من الزواج وروبير كان أحسن من غيره، شاب وسيم، مهذب وابن عائلة كريمة وذو مركز اجتماعي جيد. إن رفضه في تلك المرحلة لم يكن يعني شيئاً سوى رفض الزواج بحد ذاته. لقد تعودت ذلك الشاب وأخذت أقبله عندما تأكدت من مثابرته ومن ميوله ومن قبوله بكل نزوتي. فهو لم يكن يتململ حين أتركه مع الأهل وأذهب إلى دروسي، ثم إنه أدخل أهله في الموضوع وأتى بهم لزيارتنا ودعانا إلى بيته وأصبح الكل يعلم أنه خطيبي قبل أن تتم الخطبة رسمياً. الجيران علموا بذلك، فلا شيء يخفي في بلدنا، رفيقاتي في المدرسة عرفن أيضاً والبعض منهن حسدني عليه، إلا رئيسة المدرسة التي لم تخف رفضها للموضوع عندما أخبرتها بأني خطبت وما زلت أذكر كلماتها : "تسرعت كثيراً، عليك أن تكملي دروسك وتدخلي الجامعة". لم أكترث وقتها لما قالت، فروبير سيؤمن لي كل ما أطلب، لأنه وافق على كل شروطي وبخاصة قضية الذهاب إلى الجامعة، وعدم انجاب الأطفال طالما أنا أدرس. فماذا أريد غير ذلك، لقد كانت حساباتي صحيحة خاصة بعد أن تأكدت من عدم إمكانية القيام بأي شيء طالما أنا مع الأهل. انتهيت من الدراسة الثانوية فرفض الأهل ارسالي إلى الجامعة بحجة أن البنات لا يذهبن وحدهن في السيارات العمومية ويتأخرن في الليل خارج البيت. لم يكن أهلي ضد العلم للبنت ولكن العلم لديهم كان نفعياً. "ماذا تريدين أن تفعلي بإجازة في علم النفس"؟ تسجلي في كلية الحقوق فتكتسبين مهنة حتى إذا ما أردت أن تعملي لاحقاً فتشتغلين مع أخيك الأكبر الذي درس هو أيضاً الحقوق. لم يكن أخي بجانبي تلك الأيام فقد ذهب إلى باريس للتخصص، أمامه مستقبل والأهل فخورون به وبنجاحاته، إنه فخر العائلة كلها ومحط كل اسقاطات والدي الذي أراد أن يحقق في ابنه البكر ما لم يستطع أن يحققه في حياته، ولهذا السبب لم يبخل عليه يوماً بشيء بالرغم من قساوته وصرامة تربيته التي جعلت منه سيداً مطلقاً نخاف حتى نظراته.

كيف أرفض زوجاً يتيح لي كل ما أريد وأبقى في محيط قامع كهذا؟ كيف لا أتعلق بشخص أرى فيه خلاصي؟ أحببت روبير وكل الناس اتهمونني بالخيانة عندما طلبت الطلاق: "من أرغمك على الزواج"، قالوا: "تزوجت منه عن حب وهو لم يتغير فلماذا تتركينه؟ كم إن الحب فضفاض، ظننت أني أحببت ذلك الشاب لكن أتساءل الآن هل أحببته حقاً أم أحببت صورة ذاتي من خلاله؟ لقد أحببت ما سأكون من خلاله وبواسطته، وأظن بأني كنت سأتعلق بمطلق شاب تقدم لي في تلك المرحلة لو شعرت بأنه سيؤمن لي ما أريد وبأنه ينقذني مما كنت فيه. ثم كيف لا أشعر بالميل إلى شاب يحتكر كل الوجود الذكوري بالنسبة لي وأنا في عز القدرة الجسدية والتفتح الجنسي؟

هل إني أبرر الآن ما قمت به لاحقاً؟ ربما. فلكل عمل نقوم به أسباب قد تناقش أو ترفض أو تقبل ولكن لا بد منها. لو أحببت حقاً روبير لما يمثله هو كشخص فرد فلماذا لم أسكن معه دائماً وفضلت العودة إلى بيت الأهل بحجة الدراسة؟ بعد الزواج أصبح الأهل يعاملونني بشكل مختلف كأنهم رفعوا عن عاتقهم المسؤولية تجاهي ورموها على عاتق الزوج، فهو الآن المسؤول عن تصرفاتي

وسلوكي. حينما كانوا يسألون عن الوضع القائم حينذاك كانوا يقولون إن زوجها يريد ذلك ولا يمانع في أن تكمل دروسها. كنت أنا أستفيد من وضعي الجديد، فلا أنا بحاجة مادية إلى أهلي، أتصرف بملء حريتي بما يقدمه لي روبير ثم إني امتلكت سيارة أتنقل فيها إلى حيث أشاء بدون أن أرى نفسي بحاجة إلى تقديم المبررات لأحد. فأنا متزوجة ولا يحق لأحد أن يسألني عن شيء إلا زوجي وهو قابل بكل ما أفعل.

دخلت الجامعة ووجدت نفسي لأول مرة في محيط مختلط حيث يجلس الشاب إلى جانب الشابة في الصف بدون حرج، وحيث يتحدثان معاً بدون خجل ويشربان القهوة معًا في مقهى الجامعة كأن الأشياء عادية جداً. لم أنخرط في الجو تماما في البداية فأنا امرأة متزوجة عليها أن تكون راكزة لكي يحترمها الآخرون.

- "أنت جميلة وصغيرة فلماذا تزوجت باكراً" قال لي أحد الطلاب.
- لا أدري، هذا ما حصل أجبته وأنا مرتبكة.
- ولماذا تكملين دروسك بعد أن تزوجت؟
- ما هو الرابط المنطقي بين الزواج وعدم إتمام التعلم؟ أجبت.
- لا أقصد ذلك لكن كان بامكانك أن تتعلمي ما تريدين ثم تتزوجين.
- لم يكن بإمكاني ذلك، أجبت بطريقة حاسمة.

انتهت الاستراحة الصغيرة بين الساعتين ودخلنا من جديد إلى القاعة. فجلس الشاب بجانبي واستمعنا إلى المحاضرة الأخيرة في ذلك اليوم وخرجنا لنعود إلى بيوتنا، فاقترب مني وقال:

- ما زال الوقت باكراً هل تشربين القهوة معي؟
- لا. شكراً، قلت، فأنا عائدة إلى بيتي ولا أريد أن أتأخر.
- إذاً نراك في الغد.

ركبت سيارتي وتوجهت إلى بيت أهلي وأخذت أفكر لماذا اختارني هذا الشاب ودعاني إلى شرب القهوة معه؟ أنا متزوجة والصف مليء بالفتيات العازبات. إنه شاب جميل وذكي وكثيرات يتمنين أن يتكلم معهن ويحاولن التقرب منه فلماذا أنا؟ "تفكير سخيف" قلت لذاتي فأنا مثل غيري طالبة بين كثيرات وهو زميل لنا وكما تكلم معي اليوم فسيتكلم مع غيري غداً وأي مشكلة في ذلك؟

ولكنه لم يتكلم مع غيري. وجدته في اليوم الثاني ينتظرني أمام باب الصف، رحب بي مبتسماً وابتدأ يحادثني وأرد عليه بأجوبة سريعة، وتوجهت إلى مكاني في القاعة، فأتى وجلس بقربي. "أفضل شيء أن أتجاهله" قلت لنفسي، وما حان وقت الاستراحة حتى توجهت إلى إحدى الزميلات أحادثها، فأتى ودعانا جميعاً إلى شرب القهوة، فأحرجت وقبلت الدعوة وذهبنا إلى مقهى الكلية. جلسنا حول الطاولة فانضم إلينا طلاب آخرون وكبرت الحلقة وتعددت المواضيع المطروحة والآراء المختلفة والحلول المتناقضة وعلت الضجة في المقهى حتى لم نعد نسمع بعضنا بعضاً. يبدو أنها ساعة اللقاءات في المقهى، لكن ما أن قربت الساعة الثامنة حتى أخذ صاحبه يلملم الفناجين الفارغة ويوضب الأشياء المنثورة هنا وهناك، ثم أطفأ قسما من النور فكان ذلك إشارة أنه سيقفل مقهاه وعلينا أن نترك.

كم هي جميلة حياة الطلاب في الجامعة. إنهم يحملون هموم الكون بكاملة ويناقشون في كل المواضيع ويتعاملون مع بعضهم بروح رفاقية مرحة وحلوة بعيدين عن العقد وممارسة التهذيب المتزمت. أعجبني هذا النمط من العلاقات المتحررة الصريحة والمباشرة وتحسرت على وضعي الذي لا يسمح لي أن أمارس الحياة الطلابية كما هي بكل عفويتها.

عدت إلى البيت يومها منشرحة الذهن وواضحة القلب. لماذا تزوجت باكراً قبل أن اختبر الحياة، لماذا قيدت نفسي بشخص لا أراه إلا مرة أو مرتين في الشهر. لا؟ لن أكون ظالمة فلولاه لما دخلت الجامعة ولما اكتشفت الوجه الآخر للحياة. فلماذا أقول لولاه؟ أنا أريد ذلك إنه طموحي لكنه مغامرة

صعبة ودقيقة. كيف أوفق بين السجن والحرية وكيف سأنجو من كل هذه المغريات التي بدأت تتكشف أمامي؟ سأحاول. كل ما أغمضت عيني في تلك الليلة كانت صورته تبرز أمامي، فأحاول ابعادها واستبدالها بتذكر الأحاديث التي دارت في المقهى حتى كثرت الوجوه حولي وأخذني النوم ليردني في الصباح الباكر أكثر حيرة من ليلة الأمس. كيف ستكون المحاولة اليوم؟ إنها فاشلة منذ البداية. فما صممت على الذهاب إلى الجامعة حتى رأيت نفسي مبروزة ومرتدية ثياباً أنيقة تكفي وحدها لتوجد الاختلاف بيني وبين زملائي. لم يكن عندي ملابس كملابسهم السبور، كل ملابسي حددها وضعي الاجتماعي، فالحذاء ذو كعب عال ورفيع كما هي الموضة والثياب كلها ضيقة لا تسمح لي بالتحرك بارتياح. لكن علي أن أرتديها كي لا أشذ عن المحيط الذي منه وفيه زوجي. ثم إني أحب الأناقة فهي عملية تعويض مهمة حين يكون الأساس مفقوداً أو في طور النشوء.
ذهبت إلى الكلية، ولأول مرة شعرت باختلاف في الشكل بيني وبين الآخرين، واكتشفت أهمية الشكل في تحديد المواقف والسلوك شعرت بالتناقض بيني وبين مظهري وبدأت أكره هذا المظهر الصنمي التابع للموضة وتقلباتها. هل ينظر الآخرون إلي كما أنظر إلى نفسي، لم يكن ذلك ظاهراً بشكل بين، ربما لأنه كان يأخذ منحى الاطراء والمديح الذي كنت أستحسنه سابقاً. أما اليوم فقد اشعرني بأني لست طالبة كغيري، فأنا هنا بمهمة محددة جداً، على أن أتابع المحاضرات وأن أنسحب إلى عالمي بسرعة. لكن الجامعة ليست فقط للاستماع إلى المحاضرات، إنها محيط يتكون فيه الإنسان كلياً، كل طاقاته تتفتح وكل نواحي شخصيته تختبر وتنمو، لا ندخل الجامعة للدرس فقط وإنما لتكوين شخصية متكاملة في شبكة علاقات تختلف كلياً عن علاقاتي في محيطي الآخر.
رفضت في ذلك اليوم أن أتكلم مع أحد وأن أزور المقهى مع زملائي. فما انتهت فترة المحاضرات حتى قفلت عائدة إلى حيث كان يعتبر حيزي الطبيعي. عدت إلى بيتي الزوجي، البعيد عن العاصمة، لألتقي زوجي العائد هو أيضاً من مهمة في أحد جبال الوطن، وكانت مهماته كثيرة يغيب أثناءها شهراً كاملاً ثم يعود إلى بيته ليمكث فيه يومين أو ثلاثة للراحة بعد العناء والحياة الصعبة في الجرود العالية حيث كان للجيش مهمات محددة.
وصلت إلى البيت ليلاً فإذا بروبير ينتظرني كالعادة بعد طول غياب كله شوق كما هو ملاحظ بالرغم من تعثره في إظهار كمائنه. تعانقنا وجلسنا كل منا يخبر الآخر بما فعل طوال هذا الشهر. كنا كلانا قليلي الكلام فانتهت الجلسة سريعاً قبل أن نتناول العشاء وكنا قد أتينا به من المطعم العسكري كما في عادتنا. فأنا لا أطبخ طالما أن كل شيء مؤمن بأسعار مخفضة.
لم يزرنا أحد من الجيران في تلك الليلة. إنهم يحترمون حرارة اللقاء بعد غياب طويل. أما العادة، فكانت أن يتلاقى الجيران كل ليلة في بيت أحدهم لتمضية الوقت في هذا المحيط الضيق المنغلق. لم يزرنا أحد وكنا نعلم ذلك، فلم ننتظر أحداً، وما كدنا ننتهي من تناول العشاء حتى دخلنا غرفة النوم وشغلنا سريراً واحداً من السريرين الموجودين في غرفتنا. مارسنا الحب وهذا أمر طبيعي جداً، فكل ما التقينا نمارس الحب لكن هذه المرة كانت مختلفة. لقد انتهى من عمله بسرعة ولم أشعر بأي نشوة أو لذة. ربما لأنه لم يمارس الحب منذ فترة طويلة فهو لم يستطع بالتالي أن يتمالك نفسه قلت لذاتي لكن سرعان ما عدت بالذاكرة إلى المرات السابقة وتأكدت أن الأمر هو هو دائماً. لم أشعر مرة واحدة باللذة الجنسية.
تصبح على خير قلت له اذهب إلى سريرك علك ترتاح هناك أكثر. انتقل إلى سريره وبدأ يشخر وأنا لا أستطيع النوم. كان كل جسدي متيقظاً. لقد استثاره ولم يشبعه. هل أشبع نفسي بنفسي، ولماذا إذا الزواج؟ هل أمارس العادة السرية وبقرب رجل في ريعان الشباب وعلاقتي به شرعية جداً؟ هل أبوح له بما يدور في ذهني؟ إنه رجل مجرب وعليه أن يعرف كيف يمارس الحب مع امرأة. هل هو وحده هكذا أم إن كل الرجال هم هكذا، لا يعني لهم الحب إلا إشباع لذتهم وحدهم بدون أن ينظروا إلى شريكتهم في الفعل. هل المرأة آلة؟ طبعاً لا. وإلا لما كنت شعرت بالحرمان. جسدي يطالبني باشباع معين، إذا من الطبيعي أن يكون لهذا الجسد اشباع. ثم هل إن المرأة هي رحم فقط

مهمته حضن الجنين لفترة تسعة أشهر؟ لا وألف لا. فجسدي أصدق من كل ما يقال في هذا الموضوع، إنه يشعر بالاحباط وعدم الاشباع وهو على حق. ولكن ما العمل؟ إن الصراحة في موضوع كهذا صعبة جداً خاصة إذا أتت من امرأة.
نمت تلك الليلة على مضض واستفقت بحالة متوترة وزاد توتري حين مارس الحب معي ثانية وبنفس الطريقة، نهضت ساعتها بسرعة من سريري كي لا استعيد أفكار البارحة وبدأت أكره الجنس الذي ليس لي فيه إلا دور الآلة.
انقضت عطلته وعاد إلى مهمته في الجبال وعدت أنا إلى حياتي الجامعية محاولة الانخراط فيها أكثر فأكثر. كانت التجربة الأولى التي خضت رتابة حياتي.
ثابر هذا الشاب على ملاحقتي ومجالستي، أخذت تطرح بيننا المواضيع العديدة، منها ما هو في صلب دراستنا ومنها ما يتعلق بشؤون أخرى كان بيننا نوع من التوافق في وجهات النظر مما شدني أكثر فأكثر إلى استساغة الجلوس مع هذا الشاب، حتى أتى ذلك اليوم الذي باح فيه عن حبه لي. لم أفاجأ فأنا أيضاً كنت قد أحببته، لكني حاولت المداورة في أجوبتي: "إننا حقاً صديقان" قلت له فأجاب: "إننا صديقان، لا أنكر ذلك لكني أحبك، وهذا خارج الصداقة" حاولت أن أشرح وأبرهن له أن الصداقة والحب لا يتعارضان ولا يتنافيان وبينت له أنني عندما أصادق فتاة مثلاً أحبها في نفس الوقت. فهم مداورتي وخاض في الموضوع بشكل مباشر: "أعرف أنك متزوجة وأفهم جيداً موقفك، لكن الحب أقوى من كل الأوضاع ومن كل زواج فهو ينبت هكذا لا نعلم كيف وليس لنا أن نفسره أو نعلله. علينا فقط أن نقبله كواقع كما هو تماما؟".

- كيف نقبله كواقع كما هو تماماً، قلت، فإن قبلناه رفضنا واقعاً آخر هو أيضاً موجود. فلماذا لا نرفضه هو ونقبل ما هو قائم قبله؟
- إنك في تحليلك هذا تقفين ضد الحياة وتتسمرين في مرحلة لا تريدين شيئاً بعدها. فهل تعتقدين أنك قادرة على توقيف الحياة؟ إنها أقوى منك ومني، فهي تجرف كل المواقف المتحجرة؟

نظرت إليه، كان شاباً جميلاً يحمل كل طموحات الحياة في نظراته، كله تمرد وحيوية، يصبو نحو الآتي، لا يأبه بالحاضر ولا بالماضي، إنه بذرة المستقبل المتحدي. أين هو من روبير الذي تركز في واقع اجتماعي معين، لا ينتظر منه سوى التقدم الكمي بدون أي شهوة أو رغبة في التغيير... لكني مرتبطة وما معنى الرباط؟ هل أحب روبير؟ وما معنى حبي له إن وجد؟ أهو موقف أخلاقي قائم على رباط الزواج؟ وما هو الزواج؟ هل أحدده بالقيد؟ ربما. لكني أرتضيه لنفسي وهو ما زال يفسح لي بالمجال لاكتشاف ذاتي وتحقيقها. إنه ليس قيداً إلا من الناحية العاطفية الأخلاقية – إذن الجنسية فقط، وأنا قادرة على ضبط هذه الناحية عندي، فلماذا أنا خائفة من حب هذا الشاب لي ومن حبي له؟ حزمت أمري وقلت:

- أنا أرتاح لصداقتك، فاترك الأمور تجري كما تريد ولا تعقد الأشياء. لنعد الآن إلى قاعة المحاضرات لنرى ما هو جديد علم النفس.
- إلى متى ستهربين من ذاتك؟ قالها بسخرية، توجهنا إلى السلم المؤدي إلى القاعة، صعدناه بصمت. ودخلنا القاعة بوجوم. كان الأستاذ قد بدأ محاضرته، فتحنا دفاترنا وبدنا نسجل المحاضرة التي حين قرأتها في البيت شعرت بأني لم أسمعها من قبل.

قاربت الساعة الثامنة صباحاً لم أنم بعد وفجأة عدت إلى حاضري. ماذا أنتظر؟ إلى متى ستهربين من ذاتك؟ إنه كان على حق. إلى متى؟
خرجت من الغرفة فإذا بها تشرب القهوة مع زوجها.

- إننا ننتظرك، قالت. القهوة جاهزة. إنها من صنع سمير وهو سيد في هذا المجال. لم أنطق بكلمة، شربت القهوة بسرعة وحاولت الاعتذار والذهاب فقالت:

- لماذا العجلة؟ إنه ليس هنا.
- لدي شغل في البيت، أجبتها. ثم إني لا أفكر به ولا أريد أن أفكر به.

تركت الأصحاب وها أنا في البيت وحدي. كتب وأوراق وأقلام وجدران وباب مغلق. لملمت حالي وشرعت بالقراءة لأنني لم أكن قادرة على كتابة أي شيء، ماذا أكتب؟ فأنا ضد كل ما يجري في بلادنا حيث ندور على أنفسنا ونتآكل بدون هدف. إنها عملية انتحار جماعية ولا من منقذ.
ماذا أقرأ؟ لقد اكتشفت بعد نصف ساعة وبعد قراءة عدد كبير من الصفحات أنني كنت أقرأ "فوكو" في كتاب "الكلمات والأشياء" يا إلهي!. حتى القراءة أصبحت مستحيلة، أغلقت الكتاب لأعيد قراءته من جديد وإذا بصوت الهاتف يخترق الصمت. رفعت السماعة:

- ألو
- ألو أين كنت البارحة، اتصلت بك في المساء ولم يجب أحد؟
- كنت عند صديقتي، من أين تتكلم؟
- من باريس لقد تركت المانيا وها انذا في باريس انتظرك
- لا تنتظر فلن آتي.
- إذاً سأعود غداً.
- طيب
- إني أقبلك وهل تريدين شيئاً من هنا؟
- لا شكراً.

أقفلت السماعة. ماذا يريد مني؟ لماذا ينتظرني في باريس؟ لن أذهب، هذا أمر أكيد فأنا لم أنس بعد استقباله لي السنة الماضية في ألمانيا. تركت باريس وذهبت للقاءه هناك. وصلت مطار "دوسلدروف" قبل موعد طائرته بساعات، انتظرت طويلاً قبل وصوله. وقبل أن أتوجه إلى الباب رقم 17 حيث رأيته مع أصحابه، لوح بيده بشكل بارد جداً ثم جر حقيبته وتوجه نحو الباب كنت كلي شوق لعناقه وتقبيله وضمه. خرج من الباب، سلم علي وكأنه يلتقي صدفة بشخص يعرفه وأخذ يتكلم مع أصدقائه الآتين معه في الطائرة.
إنه يستر نفسه أمام أصدقائه الذين يعرفون وضعه، قلت في نفسي وانقبضت. لا أدري ماذا أفعل. هل أذهب معه، هل أتركه وأذهب وحدي؟ يبدو إنها بداية النهاية لهذه القصة التي لن تنتهي.

- سنتوجه إلى الأوتيل هيا بنا قالها لي وسحب حقيبته وأومأ لي بأن أسير، فسرت.

دخلنا غرفة الأوتيل، فتعانقنا وأبدى كل شوقه وحبه لي وكذلك فعلت أنا في لحظة نسيت فيها لقاءه لي.
هل محكوم على علاقتنا ألا تتنفس إلا داخل غرفة مغلقة بين أربعة جدران ونوافذ مقفلة؟ لا؟ لا أريدها هكذا فأنا أمارس نفسي، لماذا اختبئ؟ إنها مشكلته وعليه حلها. نعم إنها مشكلته وعليه حلها بأسرع ما يمكن، فلم أعد أطيق الحياة في الظل. هذا ما سأواجهه به عند وصوله، سأضعه أمام المشكلة وأطلب منه أن يحسم أمره لأن الحسم مهماً كان هو أفضل من الحالة الراهنة.
أتى في اليوم الثاني وبلغني ذلك هاتفياً من بيته وبرر عدم مجيئه مباشرة إلي، يمنع التجول المفروض ليلاً في تلك الفترة في بيروت. ما زالت اللعبة تتكرر.
دخل بيتي في اليوم الثاني صباحاً حاملاً معه بعض الهدايا من باريس.

- شكراً قلت له، ما الداعي؟
- ماذا يعني ما الداعي؟ هل هي جريمة أن آتيك بهدية؟ أجاب مستغرباً.
- ليست جريمة، أجبته، لكن وضعنا أصبح جريمة. افهمني ولو لمرة واحدة وعد إلى ضميرك ولو لمرة واحدة. ها قد مر على علاقتنا سبع سنوات ونحن ندور في حلقة مفرغة تعدني

وتنسى أو تتناسى أو لست أدري. لم أعد أفهم ماذا تريد. أنت رجل متزوج وأنا حرة طليقة. أنت محكوم لا تملك ذاتك وأنا سيدة ذاتي. هل تريدني أن أسجن مثلك في مشكلة ليست مشكلتي؟ حتى إن أردت ذلك فأنا أرفض بأن أقيد بأي قيد يفرض علي من الخارج. أنا أفرض قيودي على ذاتي أفهمت؟ أنت مرتاح جداً في وضعك الحالي. لك زوجة وأولاد ولك عشيقة تستقبلك ساعة تشاء أنت. فلماذا الحسم؟ كل الرجال يشتهون حالة كهذه. هذا هو وضعك فلا ألومك على شيء فقط ألوم نفسي لأنني تأخرت حتى الآن باتخاذ قراري. القضية الآن أصبحت قضيتي، فأنا بكل صراحة أرفض وضعي هذا، أرفضك في وضعك الحالي معي. فأنا أعتبر نفسي حرة منذ الآن. عد إلى بيتك وتدبر أمورك فإن سويتها وبقيت أنا حرة فنرى الأمر لاحقا.

- أنا أفهمك جيداً ولكن صدقيني لدي مشاكل كبيرة لا علاقة لزوجتي بها وأقسم لك وللمرة الأخيرة أنني لم ألمس زوجتي وحتى لم أكلمها منذ بدأت علاقتنا، صدقيني! لكن على كل حال سأدبر كل شيء كما تريدين هذا إذا ما زلت تحبينني. صدقيني إني أعيش مع زوجتي فقط لانقاذ الأولاد وكل منا يعيش حياته الخاصة كما يريد، ولها عشيق تسافر معه وأعلم ذلك وأنا مرتاح لذلك. سأدبر كل شيء أرجوك انتظريني.
- إني أجتر ذاتي ولا قوة لدي بعد على احتمال هذا الوضع ولم أعد أطيق ذاتي ولا أطيق أن أراك. قلتها منفعلة بسرعة.

إنها المرة الألف تقريباً التي يدور فيها بيننا حوار كهذا، ونعود، هو إلى التأجيل وأنا إلى الانتظار. هل أنتظر بعد. إنه يحبني أعلم ذلك وأنا أحبه أعلم ذلك. لكني لا أريد الحب في السر فأنا أكره الظلام. لا أستطيع إلا أن أكون في النور. الحب والكراهية وجهان لعملة واحدة. أحبه وأكرهه في وقت واحد، ووتيرتاهما تتبدل بسرعة، لم أعد أعرف ماذا أريد. لكن ما أعلمه الآن إنني قررت الانفصال فأنا أهم من الحب. لكنه يحبني. أنا واثقة من ذلك لكن أريد أن يحبني أمام العالم كله. هكذا أفهم الحب. لماذا أفصح أ،ا عن حبي له أمام من يعرفني ولا أخبئ شيئاً. هكذا عليه أن يكون معي وإلا فلا معنى لاستمرارنا معاً اطلاقاً.

الورقة الأخيرة غير مكتملة. إنها بداية فصل جديد كتب عليها "الفصل الثاني" وتقول:
أعود إلى قصتي مع روبير.
"لديك حلان لاتمام اجازتك في علم النفس. إما السفر إلى باريس أو الانتقال إلى الجامعة اللبنانية"، هذا ما قاله لي أحد أساتذة معهد الآداب الفرنسي حيث كنت أتابع دراستي.
عدت إلى البيت وكان الأمر شبه محسوم في رأسي. كيف أسافر وأنا متزوجة، فالزوج حتماً لا يقبل وأنا خائفة من الوحدة في الخارج حيث لا أعرف أحداً. لا بأس فلنطرح الموضوع مع الشريك وليأت الخيار كأنه أمر واقع. أنا أميل إلى السفر والمغامرة لكني خائفة من المجهول. أنا هنا محاطة من كل الجهات بالأهل والأصدقاء والمعارف، أينما توجهت أشعر أني أعرف أحداً أو أن أحداً يعرفني فأرتاح. لكن السفر أيضاً يريحني من كل معاناتي هنا حيث الأصدقاء ليسوا أصدقاء، وحيث الأهل بؤرة اختناق وحيث الحياة الزوجية كوميديا مستمرة في الداخل وفي شبكة علاقات خارجية. لكن الحياة في الخارج مكلفة ومن سيدفع؟ الزوج طبعاً، فأنا بلا عمل ولا يدخلني إلا مرتب زوجي فقط.
التعليم في الجامعة اللبنانية مجاني. ثم إن الانتقال إلى الجامعة اللبنانية هو أيضاً تجربة جديدة فأنا لا أعرف حتى موقع كلية الآداب.
هذا ما وجدته في أوراقها.
"حقاً لم تكن تعرف حتى موقع كلية الآداب"

هذا كان تعليقي والوحيد. فتحت المغلف الثاني فإذا به يحتوي على مجموعة من الأوراق مرتبة وكأنها ديوان شعر عنوانه: "أتكرر كما تاريخ المشرق". ما كدت أقرأ هذا العنوان حتى فتح الباب.

الفصل السابع

سمعت صوتها تقول : "هذا أنا لا تخف".
نظرت إلى الساعة، كان قد مضى على ذهابها أكثر من ساعتين. أسرعت بفتح الجارور وإعادة المغلفات إلى مكانها لكنها سبقت تحركي ودخلت مبتسمة.

- "دبرت الأمور بالتي هي أحسن، لقد ذهبت إلى بيت خالتي وأتيت بها لكي تمضي الليلة مع ابنتي، بعدها جلست معها قليلاً لأساير هذه الصغيرة التي لم أرها اليوم واستأذنتها بحجة ني مدعوة إلى عشاء مع الأصدقاء، وألمحت لها بعد أن أفهمت خالتي بأنني ربما تأخرت وبأن عدم عودتي وارد جداً... ثم أكملت. قبلت على مضض لكنها لا ترفض لي شيئاً حتى ولو كانت منزعجة. وأنت ماذا فعلت في هذا الوقت، لم يكن قصيراً، آمل أن لا تكون قد مللت.

ثم نظرت إلى المكتب حيث ما زال المغلف الثاني مفتوحاً. قالت: "العنوان ليس مني إني أخذته عن صديق بعث لي مرة برسالة ورد فيها هذا القول. كان يومها عاشقاً".
لم أجب، فقط أكملت ترتيب الأوراق وأعدتها بهدوء إلى مكانها، تركت المكتب وتوجهت إلى الصالون. دخلت هي غرفتها وبعد وقت قصير عادت وهي ترتدي عباءة واسعة. جلست في مكانها المعتاد الذي قد أخذ شكل جسمها. مددت رجليها على الطاولة مستأذنة، سحبت سيجارة، تنهدت بعمق وأرخت جسدها كأنها تستريح من تعب مزمن.
صمتنا وكل منا شرد في عالمه. لم أعلم أين ذهبت هي لكنها أسندت رأسها على ظهر المقعد وأخذت تنظر إلى السقف. فهمت أنها لا تريد الكلام، أحسست أن وجودي أصبح ثقيلاً لكن لو أرادت أن تبقى وحدها لم أتت بي معها ولما دبرت أمور ابنتها كما تقول كي تعود وحدها إلى البيت. وقت قصير من التأمل ويمضي قلت لنفسي. وقفت فلم تتحرك وتوجهت نحو المطبخ بدون أن أقول كلمة واحدة أشعلت النار ووضعت فوقها ركوة القهوة وانتظرت قليلاً أحاول إيجاد البن والسكر. سمعت صوتها:

- هل تريد شيئاً؟
- لا. إني بحاجة إلى فنجان قهوة.
- فكرة هائلة سأدلك على البن.

أتت إلى المطبخ وفتحت خزانة صغيرة وأشارت بأصبعها "هذا البن" وعادت.
جلسنا وجهاً لوجه.

- "الوحدة قاسية وقاتلة" قالت كأنها تكلم نفسها لكن لا يمكن للإنسان أن يكون أصيلاً authentique ou vrai أضافت بالفرنسية، خارجها؟ الأصالة بريي واحدة لا تتجزأ فهي واحدة على صعيد الكائن وعلى صعيد السلوك، وهذا الأخير ميدانه صعب جداً لأنه يضعك أمام الآخر وهنا يبدأ الصراع. فإن كنت حقاً ذاتك ومارست قناعاتك رفضت وإن خضعت لمقاييس الغير رفضتك ذاتك. مشكلة وعي الذات مأساة أظن أنها تمنح للذين قدر لهم العذاب في هذه الحياة، لأن الشعور بعدم التكيف قاس والوحدة أقسى، فأين تريده أن يذهب، فهل من بعد آخر غير بعدي الزمان والمكان في حياة الإنسان؟ وحياة هكذا إنسان تمر وكأنها على شفير هاوية هي هاوية الانتحار.
- الأمر ليس بهذه المأساوية قاطعتها وللوحدة أحياناً طعم الراحة والسعادة؟
- هي حقاً كذلك حين تكون ملجأ مؤقتاً ولكنها حين تتحول إلى سجن مؤبد؟ أجابت وهزت برأسها بمرارة.
- نحن الذين نصنع منها ما نريد وليست هي التي تفرض حالها علينا. ثم إن الوحدة خلاقة، فأنا لا أرسم مثلاً إلا حين أخلو لوحدتي وأنت أيضاً عليك أن تملئي هذه الوحدة. هل ما زلت ترسمين؟ سألتها.

- تركت الرسم منذ أن أصبحنا رحلاً تعرف أن الرسم لا يتم بالتأمل فله عدته وله مكانه... هذه الأشياء لا تستطيع نقلها كلما هجرت من مكان إلى آخر. هذا من الناحية التقنية أما من حيث المضمون، عليك أن تقتنع بما تقوم به وإلا...
- هل ما زلت تحبين الرسم على الأقل، قاطعتها، لقد رأيت في مكتبك عدة وكأنها أهلمت منذ زمن طويل.
- وهو كذلك أجابت: اعدت ترتيبها من جديد حين عدت إلى بيتي لكن حتى الآن لم أشعر بعد برغبة في الرسم. اللوحة البيضاء ترعبني تماماً كما حين بدأت لا بل أكثر.
- حاولي لأن الممارسة إن انقطعت عطلت الموهبة. لا تيأسي، كل شيء سيعود كما كان، قلت لأشجعها. ثم إنك لماذا لا تكتبين إذا لم تشعري بالرغبة في الرسم؟
- أكتبي. لماذا لا تكتبي؟ وماذا أكتب؟ كلهم يقولون لي إنك مثقفة وذكية وتلتقطين الأشياء بسرعة، فلا بد أن تكتبي. إني أفضل القراءة. أقرأ كثيراً وأجد متعة فيها. أأجتر قراءتي ولماذا؟ أو أجتر أقوال غيري وأكون صدى لهم؟ لقد علمتني القراءة أن بعض الكتاب يقرأ وبعضهم لا يقرأ لأنه مضيعة للوقت إذ أنهم يكررون أشياء قيلت، كأن تغيير الكلمات والاستعانة بالبلاغة وغيرها من أساليب الكتابة يغير شيئاً في الأساس. أأكتب لأدعم نظرية فلان أو فلا. لن أكتب لغيري ولن أكون تمثيلاً لكتابات الغير مهما كان هذا الغير. جديد الكتابة هو أن تقول ذاتك وتخبر عن نفسك وعن تجاربك التي لا يعرفها أحد سواك. فإن كتب كل عن ذاته أو ذاته تصبح الكتابة متعة وتصبح القراءة متعة أيضاً لأنك حيت تقرأ ترى الاختلاف والتنوع. وهما سمة الحياة والطبيعة.
- ولماذا تنتظرين سألتها، مؤكداً لها موافقتي على ما قالت.

صمتت قليلاً ثم أجابت بدون أن تنظر إلي. تحول نظرها إلى الداخل كأنها تكلم نفسها.

- من أين أبدأ، ولماذا أعزل نفسي، لماذا أسير نحو الانتحار المحتم؟ أين أنا من عالم يركض وحياة تمضي بلا عودة. يمر بي الوقت وأنا لا شيء، فقط أنتظر، لكن أنتظر ماذا؟ أنتظر نهايتي التي جبنت حتى الآن عن بدايتها. أنتظر انهياري، أنتظر فرح الثلاثين في سن الخمسين، أنتظر لأسعد غيري.إنها قمة العطاء المجاني. وقمة البلاهة والجبن. لن أنتظر بعد الآن، في الحق بالحياة وبالسعادة، أريد أن أحيا. سأخرج من تقوقعي وموتي واجترار لذاتي، سئمت الوحدة، سئمت العزلة سئمت الانتظار حتى لأكاد أمج ذاتي وأكرهها لكثرة خمولها وكسلها ولا حركيتها وتمدده المميت على فراش الانتظار.
- ماذا تنتظرين سألتها بإلحاح.
- كلما عدت إلى البيت أحاول أن ألملم أجزائي، فأجد أن مفاصلها بعيدة تتراقص كذابة في قنينة سد فاها سطح الأرض. أشعر بأن كل الأرصفة أغنية وليل رصيفي حالك دام. أرى أن ناباً نبتت للعنكبوت كي يصطاد وقد منح عصا ليرتاح وكتب على ظهره لعنة وتنزه في عنقي. وكل ليلة أسدل الستار وأنهي المشهد في نوم مرتبك... لم أتركها تكمل كي لا تسترسل في موضوع يبدو أنه يؤلمها وقلت لها:
- من له هذا الحس عليه أن يكتب لا ليقرأه الغير ويصبح كاتباً بل ليفرغ ما في صدره من أصالة يتنكر لها الجميع.
- إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يكون أصيلاً؟ وبليه الأصالة كما قلت لك إنها لا تتجزأ فإما أن تكون أو لا تكون، ليس من حل وسط فيها كما تتطلب الحياة العادية منا. فإذا أراد أحدنا أن يكون هو ذاته في الممارسة فعليه أن يكون بحالة استنفار دائم. حيت خلعت أقنعتي، تذكر ذلك، أصبحت نشازاً في محيطي. الآخرون لا يحبون الوجه الطبيعية، بل على العكس من ذلك، كلما سمكت القناع كلما قبلت أكثر واستحسنت أكر وكرمت أكثر. ونجحت أكثر.

وهذا الواقع يطرح عليك السؤال أيهما أفضل ومن هو على حق؟ ولأقول بصراحة، مرات عديدة اشتقت إلى قناع لا أخبئ وجهي لكن لأحميه من الجروح والتفسخ. الناس كلها أنياب ومخالب. لكن لم أجد ما يناسب وجهي وأقنعتي القديمة ضاعة أو أن وجهي تغير فيما عادت تناسبه. وها آنذا بلا قناع أحارب باللحم الحي، أكتب أحياناً قليلة ولا ينشر لي. لقد وضعوا شروطاً للكتابة وهذه الشروط قائمة على ثلاث محرمات: الجنس والدين والسياسة، تركوا لنا باب "العلم" مفتوحاً ننهل منه كما نشاء (لفظت كلمة علم بسخرية) فإن تجنبت هذه المحرمات وحصنت نفسك "العلم" قبلت وأصبحت كاتباً شهيراً وأضحى لكتاباتك صدى في كل العالم العربي. نعم العلم ويا لها من أضحوكة في بلدنا. أتعرف ما هو العلم عندنا، قالتها وضحكت.

- هل العلم هنا هو غيره في مكان آخر سألتها؟
- طبعاً. وذلك يدل على فجور الكاتب العربي واستغبائه للقارئ المسكين. يتنطح الكاتب لإثبات شيء ما، فيبدأ كتابته بالعلم وتأتي دراسته على الشكل التاي : "العلم يقول كذا وليس أدري إن كان يعرف أن العلم لا يقول هذا الكذا أو أنه يستغبي القارئ ويوهمه، هذه هي القضية الكبرى من القياس، ثم ينتقل إلى عرض قوله الذي هو بالضرورة مطابق للعلم وإلا لما كان العلم كما عرضه. هذه هي المقدمة الصغرى، فتأتي النتيجة بارتياح كلي وهي التالية: إذن ما أقوله هو الحق لأنه يطابق العلم. يعني وبتمثيل أبسط وأوضح تقوم كل دراسة على الشكل التالي: يقول العلم إن كل شيء أبيض هو ثلج، هذه الورقة هي بيضاء إذن هذه الورقة هي ثلج. هكذا تختم الحلقة ويفوز العلم بالرغم من أنف أرسطو الذي أظنه في أوقات كهذه يأكل أصابعه ندماً في قبره على صياغته للقياس أو اكتشافه له على الأقل.

صمت قليلاً ثم أردفت:

- لست أدري إذا كان الكاتب مقتنعاً بعمله هذا. فإن لم يكن مقتنعاً فهذه مصيبة وإن كان مقتنعاً فالمصيبة أكبر. أن يبلف شخص الآخر فأمر ممكن وربما مسموح به لكن أن يبلف نفسه qu'il se dupe lui-même، قالتها بالفرنسية، فهذه مهزلة. وإذا استعرضت الفكر العربي بمجمله ترى أنه قائم تقريباً على هذا النحو. فمن أقصى يساره إلى أقصى يمينه تتحكم به هذه اللعبة. وإن فتحت فمك اعتراضاً أو تصحيحاً انقض عليك أهل العلم وهشموك ونبذوك وهزئوا من جهلك. قارئنا غير مثقف وبليد، إنه يتلقى فقط، وكتابنا وقحون وفاجرون أو أنهم أغبياء ويريدون نشر وتعميم هذا الغباء. يعتبرون أن العلم هو عملية تحليل، يعني إذا قاموا بدراسة اتبعوا فيها منهجاً معيناً تصبح هذه الدراسة في نظرهم علمية، متناسين كلياً أو متجاهلين كلياً أن العلم لا يحلل، وأن العلم يصف فقط وأن ليس له مهمة ثانية غير ذلك. لكن ولحسن الحظ أن كتابنا ليسوا كلهم علماويين فالبعض يخرج على العلم ليكتب ذاته ويبتعد عن التحليل، وحين أقرأ هؤلاء استمتع بكتاباتهم. خذا الشعر مثلاً، ليس كله، لكن البعض منه أو خذ القصة التي تكتفي بالوصف، فأنا شخصياً أقرأ وأفرح بكل ما يكتب بالعربية حين لا يكون فيه ادعاء علمي، لغتنا جميلة وقادرة على الوصف بكل ارتياح وأنا احترم كل من يقف ويقول "أنا أرى ذلك" حتى ولو كان ما يراه ضدي لكن أن يقول إن ما أراه هو العلم فهذا يجعلك تشمئز وتكفر. ولسوء الحظ، هنا قليلون هم الذين يجسرون على قول أنا أرى. لقد فقد التواضع عند كتابنا حيث أصبحت كل أنا هي تجسيد للعلم وكل منحي سياسي هو تجسيد للعلم وكل نظرية تربوية أو اجتماعية أو غيرهما هي تجسيد للعلم. فقد الفكر الديني في بلادنا ليس له هذا الادعاء. ولهذا السبب تراه متماسكاً أكثر، فهو يقول وبكل بساطة ووضوح: الدين يقول كذا. وبالتحديد ديني يقول كذا وأنا أريد تطبيق هذا الدين. أنا أحترم وأجل موقفاً كهذا. وتلاحظ الآن أن الفكر الديني ينجح في بلادنا

أكثر من غيره، وذلك بالضبط لأنه ديني وليس له تنطحات أخرى، بينما الفكر الذي يريد نفسه مناهضاً له، هو فكر فارغ، ادعاؤه كبير ونتيجته على الأرض صغيرة.

- هل انت مع انتشار الفكر الديني؟

لم تتركني أكمل سؤالي وأجابت:

- لا. لكني أحكم على آلية الفكر فقط. فالآلية التي تحرك الفكر الديني هي أسلم من الآلية التي تحرك الفكر العلموي عندنا فهذا الأخير il est dupe بينما الأول هو صادق.
- فهمت، أجبتها، لكن كيف تعلمين في الجامعة في هذه الأجواء؟
- سبق وقلت لك ما هي حالة الجامعة. وأنا لا أعلم الآن، أجابت، فقط أنقل بأمانة ما كتب وما قرأت تاركة للطلاب القبول والرفض، واحترم الموقفين بالتساوي لأنني لا أدرس مادة علمية بل مادة قابلة للنقاش في كل لحظة. وما قيل فيها شيء إلا وقبل نقيضه. دور التدريس الجامعي ولا أقول التعليم الجامعي هو إعطاء الطالب القدر الأكبر من المعلومات كي يختار هو منها ما يراه صحيحاً، وليس دوره أن يخرج كادرات سياسية أو حزبية أو نقابية أو إلى آخره. فكل هذه الأشياء مواقف وليست معرفة. عليك أن تعلم الطالب القراءة فقط وليس أن تؤول له القراءة أو أن تجتزئ ما يناسبك أنت من القراءة لتقدمها للطالب. فاتركه يقرأ ويجتزئ ما يريد هو. هذا هو دوره وليس دورك في التدريس.
- رحم الله كمال الحاج، أجبتها.
- حقاً رحمه الله. كان أحياناً يحاول تمرير أفكاره الخاصة في الصف لكنه لم يكن دكتاتوراً بل كان يناقش ولا يرفض أي رأي يخالف رأيه. كان صدره واسعاً. وهذا هو دور أستاذ الجامعة يقول فكره ولا يفرضه. لكن أيام الحاج كان يستطيع الأستاذ أن يقول فكره بارتياح، أما اليوم وبكل صراحة فلا يستطيع ذلك.
- ليس لك إلا الرسم إذن في هذه الحالة، أجبتها، فلا أحد يعترض، أظن، على لوحة ما فإما أن تعجبه أو لا تعجبه.
- وأنا أيضاً أظن ذلك، لكن الرسم... صمتت ثم أكملت: أعترف بكسلي هنا على الرغم من كل الصعوبات التي أتحجج بها لكن يبدو أنني لا أستطيع الرسم حين أكون في حالة توتر فكري أو وجودي، بينما أستطيعه في حالات التوتر العاطفي... ربما هنا أيضاً أبرر ليس إلا.
- تذكرت ما قرأت في غيابها، سألت:
- أفهم أنك مرتاحة عاطفياً.

هزت برأسها بهدوء بدون أن تجيب ولم أفهم ماذا عنت بهزة الرأس هذه. لكنها قالت وكأنها علمت أنني لم أفهم.

- قصة معقدة وملبكة ولها ألف وجه ووجه، فالعاطفة بحر واسع لا يحتكره العشيق أو الحبيب بل هناك الأصدقاء والأهل والعلاقات العامة وكل العلاقات.
- كلها مرتاحة كي لا ترسمي؟ سألتها.
- إنها تعج عجاً. لكن الأهم من ذلك توتري الفكري وتمردي في هذا الميدان ورعبي من الحرب وصوت المدفع فهذا هو المحدد وليس الارتياح العاطفي. فمهما كنت مرتاحة في هذا المجال يظل داخلي كالبحر الهائج. وماذا نقول إذا كان الاثنان في حالة توتر وارتباك وشبه ضياع؟
- إذن اكتبي وارسمي معاً قلت مازحاً واتركي للغير الحرية بأن يكون ما يشاء.
- لكن الغير يلاحقك حتى في نومك، عالمه يغزو عالمك ويغتصبه بالقوة ويحوله جحيماً.

- أليس من طريقة لإيقاف هذا الغزو وهذا الاغتصاب.
- بلى، عليك أن تتحرر وأن تولد كل يوم من جديد، يعني أن تدير ظهرك إلى من هو وما هو حولك. الولادة الحقيقية حين أنت تلد نفسك وليس حين تلدك أمك. إني حاولت هذه الولادة منذ زمن بعيد وأظنك تذكر ذلك. شعرت حينها أن الحياة كادت تنطفئ، رأيتها سلسلة أشلاء تجرجر وراء أذناب الكلاب العمياء التي لا تعرف النور والتي حياتها كلها ظلمات وعبوديات. أبصرت حينها النور أو ما توهمته نوراً. أبصرت ذلك النور من وراء كل الظلمات والستائر التي حاول الكلاب وضعها أمام عيني، عيناي طالما حلمتا بالشمس التي تنير هذا الظلام المحيط بهما. أحسست يومها أنني ولدت من جديد وتحول الوهم إلى حقيقة، فأصبحت وحيدة لأن كلاب الظلام تلاشت مع الليل الأسود لقد أبهرها النور فلطالما أحبت الظلام وتعودته حتى أصبحت هي منه وهو منها. وحيدة في الشمس همت أبحث عن أبناء النور فإذا بعالم النور صحراء مقفرة، عالم النور فارغ إلا من الحقيقة فهو وإياها وحدة. الحقيقة نور والنور ظلام دامس لكلاب الأرض ومقفلي العيون والعقول والنور ظلام لصغيري القلوب وفاقديها. والوحدة قاتلة ورهيبة حتى في عالم النور، إنها انغلاق عقيم وسجن مؤبد... عشقت النور لكني تهيبت الوحدة فعدت إلى عالم الظلام لأعيش حياة الكلاب. لكن مرارة الشوق إلى النور لا تفارقني لحظة أصبحت حياتي ألماً ووحدة وانعزالاً أرهب من وحدتي وانعزالي في عالم النور. أشعر بأن حياتي بين الكلاب مهزلة مرة وخيانة عظمى وتلاش مستمر وموت لا إلا.

شعرت بالأسى وبمدى الألم الذي تعانيه وأخذني نمط كلامها فأجبتها مستعملاً لغتها:

- ابناء النور الحقيقي لا يموتون بين الكلاب ويرفضون الخيانة ويعشقون الحرية ويموتون أحراراً. من يرى النور حقاً يقدر أن يعيش لو لوحده فيه لأنه يأنف الصغائر وشموخه يرفض الزحف على البطون... لأن قلبه الكبير تتعبه الكلاب وتدميه لتنتعش بنزفه المتواصل. فعالم النور الذي بدا لك في رحلتك الأولى صحراء مقفرة لم يكن خالياً إلا من الكلاب التي تعودتها في عالم الظلام. سكان عالم النور نسور شامخة تحلق في الأجواء العالية فهي لا تزحف. أردت أن تري كلاباً في عالم النور فتراءى لك فارغاً. لقد خضت عالم النور بنفسية عالم الظلام فعزلتك الوحدة. لقد دخلته في المرة الأولى تلبية لرغبة غامضة ولشوق مبهم، فلم تري شيئاً. ولكن إذا دخلته الآن بعد أن نما جناحاك وكبرت مخالبك وخلصت نفسيتك من عقد الزحف تستطيعين أن تري نسوره بالرغم من قلتهم وبالرغم من اندماجهم الكلي بالنور. عيون الكلاب يبهرها النور ويعميها، وحدها عيون النسور تحدق بالشمس...
- الله كم كلامك جميل! إني أستعيدك الآن بعد فراق خمسة عشر عاماً، ظننتك فيها انتهيت وتغيرت. أعدتني الآن إلى مرحلة كنت أشعر فيها بالقوة وبأنني أملك لكون كله، حين كنت أفكر بأن الحياة تنادي من يسمعها ومن يسمعها فقط والسامعون قليلون وصوت الحياة عال، هو أشبه بالصراخ ولكن أغلبية البشر صماء، لا تسمع إلا صوت الحشرات القريبة منها. تطرب لصوت الحشرات هذه لأن صوت الحياة يؤلمها، هو نداء لمواجهة الناس بالحقيقة درب الحقيقة وعر وسهل في آن واحد. وعر للذين يفرض عليهم بدون أن يسمعوا صوت الحياة وسهل للذين سمعوا هذا الصوت وتتبعوه.. ثم أكملت قولها.
- الحياة تنادي وأسمعها تنادي، هل أسمعها وحدي ولهذا السبب أشعر بغربتي بين الناس؟ وهل عدم سماع الآخرين له دليل على عدم نداء الحياة لهم؟ لا. يكفي أني أسمعها أنا، فهي لا تختار، نداؤها صريح وموجه لكل الناس على السواء لكن الأموات لا تسمع حتى ولو نوديت أفرادياً. وحدهم الأحياء يسمعون، فالحياة لهم أما الباقون فقد سكروا بخمرة الموت وطربوا لقرقعة الطبول الفارغة هم أصنام تحركهم تململات الحاضر وانعكاسات الماضي

بل هم أصنام جامدة حتى ولو حركها الماضي والحاضر... عانيت الكثير عندما سمعت صوت الحياة وهذه المعاناة تعود إلى تمزقي بين قوتين، قوة الموت التي أرادت أن تجرني وراء التفاهات القائمة وقوة الحياة التي هي الخلاص. نداؤها يلاحقني حتى لأكاد أحياناً لا أسمع سواه. أحياناً تصمت كل الأصوات الأخرى أمام عنف هذا النداء الملح الذي يفرض نفسه ويتفرد بشكل مطلق. سكتت كأنها لم تعد تراني وبعد قليل تابعت كمن أخذ جرعة مقويات.

- سوف أحيا ولا أترك هذا الصوت يمر مع الريح، سوف أدمجه بذاتي كي يصبح صوتي هو نفسه صوت الحياة، هذه الحياة التي ترفض الموت ولو للحظة، هذه الحياة التي ترفض لتبني، هذه الحياة التي تقوى على كل العقبات مهما كبرت. فلا شيء يكبر على الحياة هي المقاس لكن كبير.

لكنها صمتت من جديد وكأنها تراجع حساباتها وتستعرض شيئاً ما مر في ذهنها وبعد وقت غير قصير قالت وكأنها تكمل جملة بدأتها من قبل.

- ... لكن الواقع تغير الآن يا عمر، يومها كنت أشعر أن الآخر قوي والأهل أقوياء والأصحاب أقوياء لأنهم كانوا ما زالوا شباباً. فإن تركتهم عاشوا بدوني وعشت بدونهم. حين يكون الآخر قوياً أو أنك تشعر أنه قوي، تستطيع التمرد والرفض لكن الضعف يجردني من كل أسلحتي من كل قواي أي أنني لا أجسر على محاربة أو مقاطعة شخص ضعيف، ضعفه يهزمني ويؤلمني في نفس الوقت. هناك أشخاص حين يؤلمك ضعفهم كثيراً، تجد لنفسك مخرجاً منهم وتتركهم كما في الطلاق مثلا. الزوج يترك زوجته أو العكس، إذا ما شعر أحدهما بهذا الشعور. لكن ماذا تفعل بالأهل حين يضعفون، فليس من صيغة لطلاقهم أو الخلاص منهم إلا العقوق والأولاد الصغار كيف تتخلص منهم. فحين ينصبك الدهر أما بالرغم من أنفك، فماذا تصنع بابنة ليس لها سواك؟ إن تركتها مرضت وربما ماتت لأنها عاجزة عن تدبير أمورها ولا أحد يهتم بها وإن اهتممت بها أخذت كل وقتك وتموت أنت بدورك لتحميها... فماذا تراني سأفعل؟

- إني لا أفهم أمومتك هذه ولا أريد أن أسألك مجدداً، فأعلم أنك لا تريدين الافصاح عنها. لكن أظن أن مشكلتك ليست هنا. إنها المخرج الذي تلجئين إليه حين تضعفين عن مواجهة الواقع. لكن هل لي أن أسألك عن صديقك وعن كيفية العلاقة به الآن وهل تدبر أموره كما وعدك وأين أنت الآن معه؟

- أي أمور تقصد؟

- هذا ما قرأته في أوراقك.

ابتسمت وقالت:

- ظننت أنك قرأت "إني أتكرر كتاريخ المشرق" فقط، هل قرأت أوراق المغلف الثاني.

- نعم قرأتها، لقد بدأت بها ولم يكن لي الوقت لقراءة أوراق الملف الأول.

- مضى على ذلك الآن ست سنوات والأمور تغيرت كثيراً.

- هل تعنين أنه طلق وأصبح حراً.

- ما هو الطلاق يا عمر. إنه كالزواج لا يتم إلا بواسطة الشهود، فهو بحد ذاته لا شيء. الممارسة هي الحقيقة. فإذ كنت متزوجاً حسب قوانين الشريعة من امرأة وأن تعيش مع امرأة ثانية، فأيهما الواقع وأيهما الصحيح. هل زواجك من امرأة ما أم معايشتك للمرة الثانية؟ الزواج أو الطلاق بمفهوميهما العاديين ليسا إلا حبراً على ورق، والحياة أقوى من كل الأوراق المكتوبة.

- أفهم من ذلك أن...

- لا تفهم شيئاً، قاطعتني، لأن الأمر لم يعد يهمني كما في السابق ولم أعد أعول على الشكليات، ثم ضحكت كمن يتذكر شيئاً ما وقالت:
- سألت مرة صديقاً لي، هو الذي أخذت عنه العنوان السابق. هل من الممكن أن يسكن رجل مع امرأة في بيت واحد بدون أن يكون بينهما شيء. هل تصدق امرأة رجلاً حين يقول لها ذلك ويقول بأنه لا يشعر بأي رغبة تجاه أكثر النساء جمالاً في العالم؟ ضحك صديقي ضحكته العادية والمعبرة وهل تعرف بماذا أجابني؟ قال يومها: يا هبى إن هذا القول فيه من الاطراء ما يكفي لأن تصدقيه حتى ولو كان كذباً؟ أعجبني جوابه ومن يومها لم أعد أطرح الموضوع مع صديقي الحالي وحتى لم أعد أعلم ماذا فعل بقضيته. لم تعد تهمني هذه الأمور اطلاقاً. هذا الصديق الذي تبعت نصيحته هو صديق يقرؤني جيداً، فقط مرة واحدة اخطأ القراءة حين كان عاشقاً فرماني بتهم لا أظنه الآن يقر بها.
- وبماذا اتهمك؟ سألتها لكي تكمل الحديث في نفس الموضوع وتنسى الموضوع السابق.
- أرسل لي يومها كتاباً يقول فيه:

كنت أحضرت لك هدية أطفال. اليوم كسرتها بعد أن عرفت، بفضلك انني لم أعد طفلا.
للأطفال وحدهم الحق بالحلم. قلت : استفق.
ماذا فعلت بي ذاكرتك؟
هل كان ينبغي أن أقسم لك حتى تنظري إلي؟
وإذا تنظرين إلي أصير شيئاً آخر بفعل القسم فتنصرفين عني.
كتبوا على ظهورنا غداً
مانهاتن أجمل ما في بلادي. وأنا لست شوفينياً.
مانهاتن أجمل ما في عيني. وأنا لست نرجسياً.
أجملك مانهاتن نهار الأحد وخلقك طفلان
لم يولدا بعد. ويبزانك غباء.
يتحدثون عن طيور أيلول ونحن في نيسان
كم هو عتيق شهر أيلول.

ثم قالت : كنا يومها في نيسان يوم عيد ميلادي وأكملت، يتابع الصديق الآن بالفرنسية:

Depuis Hegel, l’avoir n’est plus séparable de l’être : Celui qui n’a rien, n’est rien, conclusion : je n peux t’offrir quelque chose qui ne soit minable. ne rien t’ottrir c’est par conséquent plus conséquent.
Avant Hegel, on pouvait dire : je t’offre moi-même. Aujourd’hui ça ne compte plus.
On raconte que Staline, à qui on racontait que le Pape s’est engagé contre le fascisme, avait répliqué : Combien de divisions peut mobiliser ce monsieur ?
C’est l’ère stalinienne, toutes les belles idées on peut les acheter on peut, même se payer le luxe de louer un intellectuel de classe pour nous divertir.
Conclusion : Avec l’argent, tout est possible même l’amour qui n’est plus du narcissisme. Aimer-vous donc les un les autres, les autres auront l’imagination et en surplus le paradis.
Il sera là. Oui et pourquoi pas ? L’essentiel c’est d’attendre, il restera certainement des restes.
Ce qui compte, en fin de compte, c’est l’intention.

ثم يتابع بالعربية:
لم يكن بالإمكان غير ما كان
غير أنه، يا سيدي كان بالامكان غير ما كان تلك هي المسألة وإن لم تفهمي راجعي قولاً لفاليري:
En philosophie, il est essentiel de ne pas Comprendre
إنه رجعي هذا الفاليري. فلا تصدقيه
ولذا لم اصادف بعد كاتباً يشرح بنفسه ما كتب.
أراني أتكرر كما تاريخ المشرق
يكتب بارت أيضاً:
المرأة مقيمة، الرجل رحالة، المرأة مخلصة (لأنها تنتظر) والرجل يمضي (يبحر ويصطاد) هذا الرجل الذي ينتظر ويعذبه انتظاره يؤنث بشكل عجائبي. لا يتأنث الرجل لأنه لوطي بل لأنه عاشق...
تعب الرحالة من الترحال، ذات زمان
إلا أن الرحالة لم يجد مستقراً
جميع الأماكن كانت مشغولة. فقرر أن ينتظر
والترحال أخف عناء من الانتظار تماماً
كما جاء في الكتب
هذه يدي واقفة
هذا بدني منهدل
وأنا أتكرر
مضى اسمه وكتب تحته التاريخ ومن بعده كتب "دائرة" ثم أردفت :

- كم كان قاساً في كتابه هذا ومع ذلك فما من يوم لمته على ما كتب وتركت للأيام أن تكشف له خطأه.
- تتكلمين عن هذا الصديق بنوع من الحنان لم ألحظه...

قاطعتني وقالت:

- بنوع من الحنين ربما. نعم إنه أقرب الناس إلي، هذا ما أشعر به حتى ولو كنا بعيدين الآن كبعد خطين متوازيين، لا يلتقيان ولكنهما لا يفترقان أيضاً.
- وصديقك الحالي؟
- صديقي الحالي يعيش معي. فلا مجال للحلم هنا. إنه واقع أقوى من الكلام ولهذا السبب لا أتكلم عنه، إنه هنا فقط وهذا أبلغ ما يقال فيه. كل علاقة قائمة لا تستوجب الكلام عنها. لكن العلاقات التي تخلق الكلمات حولها. حين تتوقف العلاقة قبل اكتمالها تتجمد حيث توقفت. علاقتي بهذا الصديق صاحب الرسالة توقفت تماماً كما توقفت علاقتي بضاهر ولهذا السبب تركت باب الكلام مفتوحاً نكملها أحياناً بالحلم وأحياناً نسكتها فهي ملكنا نحملها ما نشاء نحن من الحنين أو الرفض أو الاستهتار أو...

إنها لا تريد الاسهاب، قلت لنفسي، وأصررت على السؤال في نفس الاتجاه عن صديقها الحالي.

- كما فهمت منك سابقاً، أظن أنه يشكل مرآة لجزء منك يريحك، وهذا على ما أعتقد إراحة الجسد.
- نعم. إن أردت ذلك أجابت، لكن إذا أردنا أن نتعمق أكثر في الموضوع نقول أن لا أحد يشكل مرآة للآخر بكل معنى الكلمة. الناس كلها دوائر مغلقة وانغلاقها هو الأقوى في حالات ممارسة الحب حيث الجسد هو الأداة.
- كيف ؟

- حين تحتاج الآخر لإشباع حاجة جنسية، لا يشكل هذا الآخر شيئاً مهماً، فهو يكون موجوداً وغائباً في نفس الوقت. حين تمارس الحب مع شخص آخر يمكن أن تحبه أو لا تحبه، فالأمر سيان، لأنك تكون وحدك في العمل. كل منا يضاجع هواماته ses fantasmes وليس الآخر. دور هذا الآخر يكون جيداً أو سيئاً بقدر ما يقترب من تحقيق هذه الهوامات أو يبتعد عنها. في الممارسة الأكثر حميمية بين شخصين يبقى كل منهما وحيداً حتى أنهما لا يعودان يريان بعضهما البعض. أنت ترى الآخر قبل الجنس وبعده، أما لحظة النشوة القصوى فهي كلحظة الموت، لا أحد يموت مع الآخر لكل موته الخاص. لكن دور الشريك يأتي بعد الجنس حين تستفيق من النشوة. معاملة الشريك لك بعد ممارسة الحب هي الأهم وليس الأمر في حد ذاته. فإذا كنت منسجماً مع هذا الشخص تفرح بلقائه من جديد بعد لحظة الوحدة هذه لأنه لا يشعر بالخجل مما فعلت، وإن كنت غير منسجم معه فتستفيق منزعجاً وتكره هذا الذي تلقاه من جديد كأنه أبعد الناس عنك تكرهه لأن الشاهد على هواماتك التي غالباً أو دائماً لا تبوح بها لأحد. هكذا يستمر الزواج أن أداة اللذة هي دائماً موجودة، نتعودها مهما كانت حتى ولو كنا أحياناً لا نحبها. الآخر هنا هو الذي يعيدك ولو للحظة إلى وحدتك المطلقة وإلى عالمك الذي لا يعرفه أحد سواك.
- تصرين على الوحدة حتى في أكثر الاوقات حاجة إلى وجود الآخر وفي أكثر الأوقات اندماجا مع هذا الآخر.
- لا أصر على شيء ولا على الوحدة، الأمور هي هكذا، أو أنها تبدو لي هكذا. قل لي بريك هل ترى الآخر حين تمارس الحب معه؟
- لأكون صادقاً، لا، أجبتها، فأنا أيضاً لا أشعر بالوحدة إلا في تلك اللحظة.
- لقد سألت غيرك، في الموضوع وكانت الأجوبة مختلفة لكن بعض الأصدقاء والصديقات وافقوني الرأي وبخاصة المتزوجات اللواتي لا يحببن أزواجهن. كل واحدة منهن حين تمارس الحب مع زوجها ترى نفسها مع عشيقها، وليس مع زوجها. والأزواج هم أيضاً كذلك. هذه هي حالة الدنيا سلسلة مهازل مأساوية تتكرر يأتي الأولاد ويستمر العالم في إعادة انتاجه لنفسه. هنا أيضاً يأتي دور الزواج، فهو قد وجد لقوننة هذا الانتاج أي لإعطائه إطاراً وهوية معينة. حتى الولد الذي يأتي من رجل غير الزوج يأخذ اسم الزوج، فهذه ضرورة اجتماعية وإلا كيف تترتب سجلات القيد؟ كيف طبق قانون الإرث؟ يكفي أن يعلن اثنان عن زواجهما وأن يشرعنا هذا الزواج حتى يأتي الأولاد أبناء هذا الزواج حتى ولو أتوا من خارجه. وهنا ترى أهمية المرأة في هذا المضمار إنها الأم مهما اختلفت الأمور وتعقدت ومهما تعدد الآباء وضاعوا. هي التي تحقق التوازن لأنها أداة الاستمرار للنوع والرجل أداة التنظيم. هي وحدها التي تعرف من هو الأب الحقيقي لولدها. الرجل مسكين ولكنه مسلح بالقانون فالأولاد باسمه وهذا التعويض يشعره برجولته حتى ولو كان عاجزاً جنسياً...
- تتكلمين كما لو أن المرأة في بلادنا فالتة لا تتقيد بالزواج.
- أقول واقع الحال يا عمر، فصديقاتي كثيرات. ومنهن كثيرات عاشقات خارج الزواج. ولكني ألاحظ أن المرأة في بلادنا أصدق من الرجل وأقوى منه في مجابهة الوقع، فحين تشعر المرأة بأنها لا تعود منسجمة مع زوجها تجسر على طلب الطلاق، وكثيراً ما تطلق انسجاماً مع ذاتها. أما الرجل فقليلاً ما يطلب الطلاق، ربما لأنه من المسموح له في مجتمعنا أن يكون له زوجة وعشيقة في نفس الوقت حتى عشيقة علنية. اما المرأة فعشيقها دائماً بالسر إذا كانت متزوجة وعليها أن تحافظ على هذه السرية وإلا فضحها المجتمع ودلل عليها الجميع بالأصابع. نعم كثيرات من صديقاتي طلقن أزواجهن لكن لست أدري إذا

كن سعيدات الآن في وضعهن الجديد. مجتمعنا قاس والمرأة المطلقة، كما قلت لك، يظنها الناس لقمة سائغة وهذا ما يزعجني عند بعض المطلقات لأنهن يتصرفن وكأنهن يثبتن هذا الظن. فهن يستقبلن كل الشباب وكل الرجال بادعاء التحرر، فيمضي الرجل ليلته ويرحل ليتبجح أمام رفاقه بصيده الليلي. الرجل عندنا ديك لا يتثبت من رجولته إلا حين يمارس الجنس فينفخ ريشه كالطاووس ويتأكد أنه ذكر. أما المرأة في هذه الحالة فتكابر وتحاول أن تتلبس دور الرجل وتبرر عملها بأنها كالرجل تماما، حققت رغبة عابرة كانت في حينها صافية وصادقة. لكني أعلم جيداً أنها مكابرة ون المرأة تتألم من ذلك خصوصاً حينما ترى أن رجلها عاد إلى زوجته وإلى حياته العادية كأن شيئاً لم يكن. فتحقد عليه وتتظاهر بالصداقة له لإيهامه بأنه لم يؤثر في حياتها لكن الأمور غير ذلك تماماً. قالت في صديقة مرة وهذه الصديقة واضحة مع ذاتها، قالت: "أتعرفين فلان؟ قلت له مرة أن يأتي مع زوجته حين يريد أن يزورني. فتغير لونه وحاول المراوغة وأفهمني أنه لا يحب أن يأتي بزوجته معه إلى بيتي، فإما أنه يخجل من زوجته لأن نواياه غير صافية أو أنه يعتبرني شرموطة ولهذا السبب لا يريد أن يدنس زوجته بهكذا علاقات وكلاهما واحد. ولم أعد أدعوه اطلاقاً". لكن ما أن أتيت في مرة لاحقة إليها حتى رأيته معها. فهمت أن الوحدة قاتلة وللتمويه والخروج منها نضعف ونستغني عن المبادئ أحياناً.

صمتت ولم أعد أرى وجهها جيداً لأن الظلمة أخذت تغزو الجو.

صمت بدوري.

كنا في مثل هذه الأوقات من بداية الليل نتمشى في حدائق الجامعة الأميركية بعد أن نكون قد أمضينا وقتاً طويلاً في المكتبة نقرأ ونكتب كل منا في دراسته. أين الآن هذه الأجواء في الجامعة الأميركية، أما زال الطلاب يتنزهون بحرية في ربوعها ويتناقشون ويمزحون بدون أن يزعج أحدهم الآخر.

كنا نمشي ثم نستريح على مقاعد خشبية وضعت لهذه الغاية. كنت أرى وجهها كما أراه لآن. لكن شتان بين وجهها هناك وجهها هنا. كانت تجلس بقربي، لا تخاف أحداً كلها قناة وثقة من أنها ستغير كل التقاليد والعادات وأنها ستغير عقلية المرأة في بلادنا، كان حماسها يفوق الحدود أحياناً، وشعارها كان "إما أن أكون حرة أو لا أكون"، بهذا القول ختمت أطروحتها حول وضع المرأة في لبنان. وقولها هذا لم يكن شعاراً فارغاً، بل كانت أحياناً تمارسه بكل تحد وقوة. مقولة الحرية هذه رافقتها طول السنين التي عرفتها فيها، حتى أطروحتها للدكتوراه كانت حول موضوع التحرر لكن في الفكر السياسي العربي. هذا الموضوع كان يستقطب كل حماسها الذي كانت تظهره في النقاشات الطويلة التي كانت تدور في أجواء الجامعة وخارجها. كنت فخوراً بها... هل قصتي معها كانت بداية هذا الاحباط الذي أقرأه اليوم على وجهها؟ لا. فما زالت صورتها أمام وهي تناقش أطروحتها في باريس، كانت قوية كما في أطروحتها الأولى، حتى قال لها أحد الحاضرين بعد المناقشة: "شو هالصيصان" وكان يقصد الأساتذة.

كانت ما زالت قوية بعد أن افترقنا، ودعتنا إلى الغداء أنا وأنغرد بعد المناقشة. هل كانت تمثل اللامبالاة؟ هل كانت تفتعل القوة؟ أم أني كنت أراها هكذا كي لا اشعر بالذنب؟

نظرت إلي وقالت بصوت منخفض:

- كيف حال أنغرد؟
- فاجأتني بالسؤال وأجبتها بدون أن أفكر:
- جيدة.
- أما زالت جميلة؟
- هززت برأسي إيجاباً بدون أن أفوه بكلمة.
- لقد اخترت الطريق الأسهل يا عمر وأنقذت نفسك بها من الوحدة...

قطعتها بسرعة:

- لا أحد ينقذ نفسه من الوحدة إنها الإطار الوحيد الثابت. نخرج منها فتشدنا إليها فنعود ونخرج، ونحاربها بالزواج، بالأولاد وبالشغل وبألف حيلة وحيلة ولكنها الأقوى دائماً.
- إنها الأقوى دائماً نعم.

ثم وقفت وجرت قارورة غاز ركب عليها قنديل على رأس أنبوب حديدي، فتحت القارورة وأشعلت القنديل. بعدا توجهت إلي وقالت:

- اختر، فإما أن نبقى هنا ونسهر على ضوء هذا اللوكس أو أن نذهب إلى بيروت ونلتقي الأصحاب. فماذا تريد؟
- لقد قال لي عيسى إنهم ينتظرونك، فهيا بنا أجبت.

ابتسمت وقالت : هل ما زلت تتذكر لعبة البوكر؟

- طبعاً أتذكر لكن لماذا هذا السؤال؟ قلت

لم تجب. دخلت غرفتها وتركتني.

كنا نفترق بعد لقاء الجامعة الأميركية ويذهب كل منا إلى عالمه، هي إلى زوجها وأنا إلى الرفاق، لكن في أغلب الأحيان كنا نلتقي من جديد أمام إحدى قاعات السينما في شارع الحمراء، كنت أفرح بهذا اللقاء أكثر من كل اللقاءات الأخرى. كان يفاجئني ويسعدني لأنه غير مبرمج، كانت تتراءى لي في كل وجوه النساء حين أتركها وهكذا فجأة تطل مبتسمة كأنها على علم بأنها ستراني. كنا ندخل قاعة السينما معاً يرافقنا زوجها، وعند نهاية الفيلم كنا نتسكع في الشارع أحياناً وندخل أحد المطاعم أحياناً أخرى وغالباً ما كنا نذهب إلى منزلها حيث نلعب البوكر. كم كان زوجها عدوانياً مها على طاولة اللعب. كنت أتجاهل الأمر وأعذره. السهرات هذه كانت تطول حتى بعد منتصف الليل وبعدها نتفرق من جديد. أخرج مع الرفاق وأتركها في البيت.

"لم أنم قبل الرابعة صباحاً" كانت تقول لي حين نلتقي في اليوم الثاني وكان سؤالي دائماً لماذا بليدة وليس لها معنى، فتكمل كمن لم يسمع هذه اللماذا.

"دخل روبير إلى غرفة النوم ونام. أما أنا فدخلت إلى مكتبي ورسمت. هل تعلم أن الرسم يأخذني أكثر من القراءة. أحياناً القراءة تتعبني، أما الرسم فلا. حين تتكون اللوحة في رأسي لا أعود أستطيع النوم قبل انجازها، وحين انتهي أرتاح وأدخل غرفة النوم وأنسل بهدوء في سريري حيث أنام إلى ما بعد ذهاب روبير إلى عمله في اليوم الثاني". مضى وقتها أكثر من سنة وهي تردد نفس القصة وكنت أسألها أحياناً: "ومتى تلتقيان؟" فتجيب ضاحكة:

"على الغداء في المطعم العسكري. ثم نفترق من جديد هو إلى البيت أو لست أدري إلى أين، وأنا إلى الجامعة. وهكذا تمر الأيام كل منا غارق في عالمه".

خرجت من الغرفة مرتدية ثيابها، توجهت نحو اللوكس أقفلت قارورة الغاز. فأخذ النور يخف ببطء وقالت:

- هيا بنا فما زال لدينا الوقت الكافي لكي نجد الأصحاب في المقهى.

أغلقت الباب وأقفلته بالمفتاح، ثم أخرجت من حقيبتها بطارية صغيرة أنارت بضوئها الخافت درجات السلم ونزلنا الطوابق كلها. بداية الليل هادئة جداً في هذه المنطقة حيث تسكن. صمت عميق يلف الأجواء حتى تكاد وأنت فيه تسمع تنفسك ونبضات قلبك.

- ما أروع هذا الهدوء، قلت.

لكن ما كدت أنهي كلامي حتى سمعنا صوت عواء بعيد فضحكت وقالت:

- لا يكسر هذا الهدوء إلا أصوات الواوية، إنها ضيوف الأحراج في الليل. إنها تلعب أو تضحك أو تظهر خوفها بهذه الصيحات لست أدري. لكني أصبحت أستأنس بها.

الفصل الثامن

ركبنا السيارة وتوجهنا نحو بيروت. كانت فرحة وقالت:

- مهما كانت بيروت ومهما هربت من ضجيجها ووسخها وعتمتها وقلة مائها ودمارها و... فليس لك غنى عنها. كانت بيروت وستظل مدينة كل المدن العربية بالرغم من كل ما حل بها وبالرغم من كل الحروب التي خاضها الآخرون على أرضها. شراسة هذه الحرب تريك كم كان حقد الآخرين على بيروت كبيراً. حطموها لكنها ستنبعث من رمادها.
- إنك متفائلة حقاً، قلت، مع أن الزائر لبيروت بعد طول غياب لا ينتابه إلا التشاؤم حين يعيش فيها فترة معينة.
- ربما كان هذا شعور عابر السبيل والزائر. أما المقيم والذي عايش بيروت الحرب لا أظنه يفكر هكذا. إنها ملاذ كل الفقراء الذين لم يستطيعوا الرحيل والهرب، فكيف تريدها أن تموت؟ في فترات الحرب القاسية التي أحبطت كل الناس تقريباً كان لبيروت طعم آخر. كنا نخرج منها بها إليه ونجتمع حول طاولة اللعب فننسى جو الحرب وتدور بيننا حرب أخرى حيث كل منا يعبر عن عدوانيته بكل وضوح. تصور أننا نجتمع خمسة أو ستة أشخاص حول طاولة البوكر. كل واحد منا خصم لكل الآخرين، يمثل على الطاولة حالته في الحرب حيث أصبح كل واحد منا فرداً تائهاً يواجه وحده كل الرعب فتصبح المقامرة التي هي عيب في لغة العامة ساحة اسقاطات رهيبة يفرغ فيها كل منا كل مكبوته الناتج عن الرعب والقذائف والمدافع والانفجارات و... كل منا يريد أن يدمر الآخر حتى النهاية. إنك تعيش حول الطاولة وحدانيتك بشكل مطلق وتمارس عدوانيتك بشكل مطلق وتفرغ كل قرفك ورق شخصيتك بشكل مطلق، فترتاح بعد المعركة وتنام ناسياً الحرب والوقت وكل شيء. لم أر يوماً طاولة اللعب هذه إلا حلقة تحليل نفسي فهي اعتراف سلوكي بمكبوتات الذات عوض الاعتراف الكلامي الذي يلجأ إليه التحليل النفسي الكلاسيكي. فكما يرتاح المريض بعد الاعتراف بمكبوتة هكذا يرتاح اللاعب بعد الجولة حتى ولو خسر ماله.

صمتت قليلاً ثم أكملت :

- يعيروننا بأننا نقامر، ولكننا لا نبالي ولا نعير أي اهتمام لهذا التعيير، وأكثر من ذلك أننا نحزن لوضع من يعيرنا لأنه لا يعرف اللعب. فمن لا يلعب لا يستطيع أن يعرف الجد.

لم استطع التحمل أكثر من ذلك وصحت بها:

- ألهذه الدرجة أصبحتم محبطين. وماذا يعني هذا الغرام بالمقامرة إلا الهروب من الواقع.
- وهو كذلك، أجابت، فأمام واقع أقوى منك ويهدد حياتك في كل لحظة ويضعك امام الموت في كل ثانية ويقتل أصحاباً لك كنت تحبهم ويحبونك ويحرم أولاداً من الأب أو من الأم أو العكس، وأمام واقع يريك احترام بيتك ورزقك وبلادك وكل آمالك فماذا تريد منا أن نفعل؟ أن نقاوم؟ لكن نقاوم من ونحن لا نرى عذراً لهذه الحرب. أنصمد؟ وكيف؟ احباطنا كان الصمود الوحيد وسكوتنا كان السلاح الوحيد لدينا لكي نستمر ونكون الشهود على القتلة والآن على الورثة...
- لكن البعض وهو كثير كان يكتب الحرب وينشر وينتقد ويوالي ويعارض قلت لها.
- لكن، أجابت، أيضاً وبكل بساطة لم أشعر بالرغبة في ممارسة أي شيء من الأشياء التي عددت. كان الرعب يشلني وكان القمع يهددني في حياتي. لن كتب أو أمارس غير ذاتي في السلم أو في الحرب. أن أكون غير ذاتي فهذا يعني أن أدجن ذاتي يعني أن أكون ذاتي يعني أن أموت لكن بعد خيانة، ولهذا السبب أفضل الموت الصريح بدون أي خيانة. لهذا السبب

أيضاً كنا نحاول قتل الوقت، لأنه ليس وقتنا، فهو وقت الآخرين ويريدون أن يحسبوه علينا، فكنا نحاربهم بسلم ونقتل هذا الوقت الذي يقدمونه لنا وكأنه وقتنا. ثم إننا لم نؤذ أحداً بقلتنا للوقت بهذه الطريقة. أما غيرنا ومنهم بعض المحمسين للحرب وللانتصارات فكانوا يقتلون الوقت بطرق مختلفة، حاولت الانغماس فيها فترة لكني لم استطع الاستمرار لأني أحسست أنها لا تقتل الوقت بل تقتل الإنسان وكرامته وهذه الطرق مهما تعددت فهي تتم على الشكل التالي : يجتمع الأصحاب لحضور ندوة معينة، ثم ينتقلون إلى بيت أحدهم وتبدأ العربدة والشرب والرقص والغناء... أجواء لطيفة في البداية حيث ما يزال كل واحد يتمالك ذاته ومتماسكاً، لكن ما أن يقترب منتصف الليل حتى تتغير الأجواء، بعضهم يذهب إلى بيته ويكون دائماً المغادرون هي المتزوجون المصحوبون بأزواجهم أو زوجاتهم وتعم بعدها الفوضى في ما بين الباقين. هذا ما كنت أسمعه عن هذه اللقاءات لكني ما كنت أصدقه حتى رأيته بعيني. فمرة كنا عند إحدى الصديقات المتحررات. بعد الشرب والرقص و... رأيت إحدى السيدات المطلقات والمحترمات جداً على صعيد النشاط الثقافي لبنانياً وعربياً، تجلس بالقرب من أحد الرجال وتطوق عنقه بذراعيها وتبدأ بتقبيله بطريقة شهوانية غريبة. إنه صديقها أو عشيقها قلت لنفسي، فلنفسح بالمجال لهما ونترك. تركت السهرة بالرغم من اصرار صديقتي على بقائي، وعدت إلى البيت. أتعلم ماذا قالت لي صديقتي في اليوم الثاني حيث سألتها عن نهاية سهرتها، قالت عن تلك السيدة المحترمة أنها كانت المرة الأولى التي تلتقي فيها بهذا الرجل. "لقد أمضيا الليلة في بيتي"، قال، و"وأنا ما كنت أريد ذلك ولكنهما أصرا فماذا تريدينني أن أفعل"؟

شعرت يومها بقرف فظيع ينتابني، أكملت، ولعنت في نفسي التحرر الذي تفهمه هؤلاء السيدات وانتقدتهن بصوت عال فأجابتني صديقتي :"هذا أمر بسيط، فأحياناً تنتهي السهرات بـorgie كبيرة لا يعود يعرف فيها مع من"؟

ظننتها تبالغ لكن الأمر ليس فيه مبالغة، يا عمر، كما علمت بنفسي لاحقاً:

أنت مرة إحدى الصديقات من الخارج، فدعوتها إلى العشاء في بيتي ودعوت معها عدداً من الأصدقاء. كانت سهرة لطيفة، وحين تعبنا من الأكل والشرب والرقص، أخذ الأصحاب بالانسحاب الواحد بعد الآخر، فوجدت نفسي مع هذه الصديقة التي كانت قد دعوتها مسبقاً إلى النوم في بيتي إذ كانت لا تستطيع العودة إلى بيتها، لكن ما فاجأني أننا لم نبق لوحدنا بل بقي معنا اثنان من الشباب، كانا رجلين متزوجين. ما هذا الذي يحدث؟ قلت في نفسي ولم يكن عندي الجرأة على قول أي شيء. وما هو إلا وقت قصير حتى وضع أحدهما في المسجلة كاسيت موسيقى هادئة وأخذ يراقص صديقتي التي بدت منسجمة جداً. ثم دخلا إلى غرفة الطعام وأطفآ النور. جلست على الكنبة وسرحت بأفكاري وبماذا سأفعل. تمدد الرجل الثاني على كنباية أخرى بد أن حاول أن يراقصني ورفضت. كنت حقاً مذهولة.

بعد وقت قصير عادا من الغرفة المظلمة وحين رأيانا كل منا غارق في عالمه صاحا: "ماذا يحدث لماذا لا ترقصان"؟ فأجاب الرجل الثاني: "إنها لا تريد". أما أنا فقد لزمت الصمت. أفكر كيف أتخلص من هذا الجو. وما هو إلا وقت قصير حتى وقف الرجل الذي كان مستلقياً ودعا صديقتي إلى الرقص وبعد قليل دخل معها الغرفة المظلمة. يا إلهي ماذا يحدث قلت، فتقدم مني الرجل الأول وقال هيا بنا. كنت كالجليد. جلس على الأرض بقربي وأخذ يقنعني بما يمليه عليه السكر. وأمام تمنعي قال : "ألم تمارسي حتى الآن الجنس بطريقة جماعية ولا مرة في حياتك"؟ أدهشني سؤاله. كان يرى الأمر طبيعياً جداً ويستغرب كيف أن امرأة تدّعي التحرر وهي لم تمارس الجنس عشوائياً. قلت له بكل برودة "لا ولن" وحين اصر وحاول اقناعي قلت له : كل ما أستطيع فعله هو أن أدخل غرفتي وأن أترك لكم الجو حراً: وهكذا فعلت. فلحق بي الرجلان والصديقة وحاولوا

اقناعي من جديد. كنت بحالة ذهول مما أرى. إنها متزوجة وهما متزوجان وليس بينهم أي علاقة حب أو... فماذا يريدون؟ ممارسة الجنس فليفعلوه وحدهم ماذا يريدون مني؟
أصررت على موقفي الذي لم يكن موقفاً بل قناعة عندي بأن الجنس شيء مقدس لا يمارس بهذه الطريقة الحيوانية المبتذلة فاعتذروا ورحلوا عني.

- كل منا يهرب بطريقته الخاصة من الحرب. هؤلاء وغيرهم الكثير يلجأون إلى هكذا أجواء كما أنك أنت تلجئين إلى اللعب، لكل طريقته ومزاجه؟ اجبتها.
- لكل طريقته نعم، وفي حالات الحرب نعم. لكن هذا الأمر حتى في مراحل السلم يبدو أنه شائع في بلادنا كما أن انماطاً أخرى هي أيضاً شائعة، قالت، تصور أنني اتهم في هذه الأجواء بالتقليدية وبالإنسان الذي لا يعرف ماذا يريد والذي لا يؤمن بما يكتب ويصرح.
- كيف ؟
- لي صديقة أخرى تعيش حياة تعيسة مع زوجها لكنها لا تريد الطلاق بسبب وجود الأولاد، فوجدت لنفسها مخرجاً وعشقت أحد الأصحاب لها. هما عشيقان حقا، هي متزوجة وهو متزوج ولكنهما وجدا في علاقتهما أرضية اتزان لوضعيهما السيئين. كانا يدعوانني للخروج معهما إلى العشاء أو إلى الغداء أو إلى السينما أو ... كي لا يفضح أمرهما أمام الناس. كنا نخرج معاً وأرى صديقتي سعيدة فأفرح لأنني على علم بأجواء بيتها التعيسة لكن بعد الغداء أو العشاء أو السينما، كانا يدعوانني إلى بيت صغير اشتراه الرجل للقائهما. في البداية رافقتهما. لكن أتعلم ماذا كان يحدث؟ كانا يدخلان غرفة النوم ويتركانني في الصالون ويبدآن بممارسة الجنس يسمعانني أصواتهما وتنهداتهما فاحتار بأمري أأترك وأرحل لكن ماذا يحل بصديقتي التي أحب إذا فعلت؟ كنت أحاول أن أتمدد وأنام وأن لا اسمع، لكن سرعان ما كان يخرجان وكأن شيئاً لم يكن. كنت أفهم أن يتحابا ولك أكن ضد علاقتهما لأنها بنظري اصدق من علاقة كل منهما بشريكه الشرعي لكن لماذا يريدانني الشاهد على ذلك. حقاً ما كنت أفهم لماذا. وفي مرة من المرات رفضت مرافقتهما فاتهماني بالتخلف وقال لي الرجل وهو مثقف ورجل محترم: "تدعين التحرر للمرأة يا هبى وترفضين العلاقة التي نحن فيها، فأي تحرر هذا الذي تنادين به؟ لم استطع التحمل يومها فأجبته : "التحرر عندي لا يعني الشرمطة يا أستاذ أفهمت ماذا أقصد بالتحرر؟ لماذا تريداننني الشاهد على علاقتكما وعلى ممارستكما للجنس؟ افعلاه وحدكما إن كنتما مقتنعين بما تفعلان ولكنكما تصران على وجودي خوفاً من الفضيحة. فإن أتى أحد وفاجأكما تريدان بوجودي أن تقنعا الغير أن لا علاقة بينكما. أنا لست ضد العلاقة بحد ذاتها ولكني ضد سريتها التي لم تعد سراً لأحد. فإما أنكما قادران على المواجهة وانكما مقتنعان حقاص بما تقومان به أو انكما تمارسان الشرمطة وليس الحب. حتى الآن كنت أظنكما عشيقين وكنت أغفر لكما نظراً لسوء وضعيكما في بيتكما. أما الآن فافعلا ما تشاءان لكني لا أكون الشاهد بعد الآن.

ضحك الرجل مستهزئاً وقال لي: كنت أظنك أكثر وعياً. لقد قرأت أطروحتك في تحرير المرأة وظننت أنك أكثر ادراكاً وفهماً لما كتبته.

- إنك لم تفهم ما كتبت أو أنك لم تقرأ شيئاً، أجبته بانفعال، فهناك فرق كبير بين العلاقة الحرة والعلاقة المستترة. الأولى علنية لا تخاف الشمس بينما الثانية لا تحيا إلا في الظلمة وداخل جدران أربعة وشبابيك وأبواب مقفلة. الأولى تسرح في كل الفضاء متحدية كل الناس لأنها حقيقية والثانية لا تجسر على الظهور وتختنق تحت الأرض.
- ولكننا متزوجان، قال، وعلينا انقاذ ما لا نريد هدمه.

- وأنا أيضاً كنت متزوجة، قلت له، لكني هدمت الخطأ ولست نادمة لأنني لا استطيع الحياة في الظل. فلو قررت البقاء في مؤسسة الزواج لما كنت قمت بأي علاقة خارجه. فأنا كلية لا أراوغ ولا أمثل حتى ولو كانت حياتي ثمناً لذلك. حين شعرت أن ممارسة الجنس مع زوجي أصبحت نوعاً من الزنى قررت الطلاق أفهمت؟
- برافو، قال، وصفق بيديه كن يكافئ طفلاً صغيراً.

عرفت حينذاك مدى ادراكه للموضوع ولم أجد إلا الصمت ردًا على موقفه. ومن ذلك الوقت لم يعودا يدعونني لمرافقتهما إلى بيتهما السري. فلقد أراحاني حقاً

انعطفت السيارة عن الطريق العام نحو البحر فإذا بنا أمام مقهى يدعى مقهى الروضة.

- سيارته هنا، قالت، إذن ما زال الشباب في المقهى. أوقفت السيارة ودعتني إلى النزول. دخلنا وكانت الساعة تقارب السابعة والنصف مساء. المقهى شبه مقفر. توجهت إلى إحدى الطاولات وجلست، فجلست قبالتها بدون أن أسأل شيئاً. أتى الغارسون مرحباً فسألتني هل أشرب الشاي أو القهوة، ثم طلبت قهوة وقالي للغارسون:
- من فضلك اصعد إلى الغرفة الزجاجية وناد الدكتور عيسى أو السيد بهيج.
- بأمرك يا ست أجاب وانصرف.

وما هي إلا دقائق وقبل أن يأتيان بالقهوة، حتى رأيت الدكتور عيس يتوجه نحونا ضاحكاً. سلم وجلس معنا. لاحظت أنه يعرفني فقالت متوجهة إلى عيسى:

- إنك على ما يبدو تعرفه، فليس من داع للتعارف، إذن.
- إني أعرفه منذ أيام باريس أجابها.
- ولكن... بدأت تقول، فاستدركت الأمر، وقلت لها:
- لقد تقابلنا اليوم صباحاً، فهو الذي أعطاني عنوان بيتك.

ضحك الدكتور عيسى وقال ساخراً.

- أمضيتما النهار معاً ولم تسألك كيف عرفت منزلها ومن دلك عليه، يبدو أن لقاءكما كان حافلاً.
- صحيح لم يخطر ببالي أن أسألك وكأن الأمر بديهي أن تعرف أين أسكن، قالت.
- على كل حال، أجاب عيسى،إنه نسيان معبر un lapsus significatif قالها بالفرنسية. ثم نظر إلى هبى وابتسما كأنهما تفاهما على شيء.
- أنت هنا، يبدو أن يديك ترعيانك حتى جئت في مثل هذا الوقت.

هذا ما قاله أحدهم، هو رجل متشيب، وهم يقتربون منا. كانوا ثلاثة رجال. سلموا علينا بالأيدي وجلسوا. فقالت هبى:

- أقدم لكم عمر

ثم توجهت إلي وقالت:

- أقدم لك بهيج وأشارت إلى الرجل المتشيب، وعبد الله وحسن.
- هيا بنا، قال بهيج فلنذهب إلى عملنا.
- انتظر قليلاً، لقد طلبنا القهوة، أما عدت تستطيع الانتظار، قالتها ضاحكة.

ضحك بدوره وسأل: إلى أين سنذهب الليلة؟

- أما زلت أمينة مسافرة سألت
- نعم، أجاب بهيج.
- إذن إلى بيتك كعادتنا في غيابها.

شربنا القهوة بسرعة من عليه القيام بمهمة ملحة وذهبنا إلى بيت بهيج.

- إلى الطابق الخامس، قالت هبى، متوجهة إلي، أمرك لله.
- أكلكم تسكنون الطوابق العليا؟ أجبتها مازحاً، وتمضون كل أوقاتكم على السلالم؟
- في منطقتنا لا تنقطع الكهرباء إلا نادراً، وانقطاعها هذه المرة هو أمر غير عادي. أما في بيروت منذ أكثر من سنتين والوضع هكذا. أهالي بيروت نسوا أن في البلد شركة كهرباء قالت.
- نحن المناضلون الحقيقيون في هذه الحرب يا سيد عمر، نحن المساكين الذين يدفعون الثمن قال بهيج.

قطعنا الطوابق الأربعة وإذا بكل الأبواب حديدية. وصلنا إلى الطابق الخامس وإذا بباب حديدي أيضاً.

- لماذا كل هذه الأبواب الحديدية، سألت.

ضحكت هبى وقالت:

- قالوا لنا في أيام سليمان فرنجية: "ناموا وأبوابكم مفتوحة حتى وصلنا إلى وقت لو استطعنا فيه تصفيح الجدران كلها لفعلنا. فتح بهيج باب البيت ودخلنا كلنا نلهث من التعب.
- الطاولة جاهزة فلا تضيعوا الوقت قال بهيج. ثم دخل إلى غرفة ثانية وعاد وبيده كيس من البلاستيك وضعه على الطاولة وأخرج منه علبة، فتحها ووزع منها الفيش بعد أن أخذ كل منا مكانه حول الطاولة. وبدون أن يتكلم أحد اخذ كل منهم بعض المال من جيبه وأعطاه إلى بهيج الذي وضعه بعد عده في العلبة وأغلقها ثم قال:
- يا سيد عمر نحن نلعب على الخفيف، فإذا أردت مشاركتنا ادفع كذا.

دفعت المبلغ وأخذت بالمقابل فيشاً وبدأ اللعب.

كانت البداية هادئة يتخللها بعض التعليقات الطريفة. جو مريح ليس من عدوانية. كما قالت هبى.

تقدم الوقت فكبرت اللعبة وأخذوا يتناتشون بعضهم كالذئاب ولكني لاحظت شيئاً مهماً وهو التالي: حين يكون الكل مشتركين في اللعبة يكون الهجوم شرساً وكذلك الرد أما حين تنحصر اللعبة بين اثنين فيسود جو من التسامح حيث كثيراً ما تفتح الأوراق قبل نهاية الدور ويربح من يربح بدون عنف. ماذا يعني ذلك. كل ما فهمته أن العنف عند هؤلاء اللعيبة ليس موجهاً ضد بعضهم لكن ضد خصم وهمي، يفرغون عدوانيتهم عليه حين لا يكون ظاهراً ومحدداً بشخص لكن حين يتجسد الخصم بشخص فرد تتغير الأمور. "لا يكرهون بعضهم"، قلت في نفسي بل إن حقدهم موجه فقط ضد الوقت الذي يريدون قتله مهما كان الثمن. أما حين كانت تنحصر اللعبة بين عيسى وهبى كنت أرى تسامحاً أكبر وكأن كل واحد يريد ن يربح الآخر.

انطفأت الكهرباء وساد الظلام للحظة، فأسرع أحدهم وأشعل القداحة بقربه وأسرع بدوره بهيج ودخل إلى غرفة مظلمة وأتى بقنديل أشعله ووضعه بطريقة مدروسة قرب الطاولة فأكملوا اللعب حتى الوقت المحدد ولم يكن طويلاً. ثم بدأت المشاورات. هل نكمل أو نتوقف وتضاربت الآراء فحسمت هبى الأمر وقالت:

- نتوقف الآن فنحن علينا مشوار طويل.

أتى وقت الحسابات فتبين أن الخسائر ضئيلة ولكن الوقت الذي مضى كان طويلاً جدًا فكان ثمنه بخساً.

نزلنا السلم وتوزع الأصحاب كل في سيارته. قلت لهبى:

- لا داعي لأن أذهب معك، فأنا أخذت غرفة هنا في شارع قريب، أراك غداً.
- كما تريد أجابت، إذ نلتقي غداً في مقهى... في الحمراء الساعة العاشرة.
- إلى الغد، قلت، ووقفت أنظر إليها وهي تأخذ سيارتها وترحل.

كنا نتفارق هكذا في مثل هذا الوقت، هي إلى بيت أهلها وأنا إلى بيت أهلي في الأشرفية حيث كنت أرسم حتى الصباح، ماذا حل ببيتنا هناك؟ هل احتله أحد؟ وماذا حل بلوحاتي ولوحاتها التي تركناها ورحلنا.
كنا في ذلك البيت حيث قرع جرس الباب وفاجأنا بمجيئه، كنت في تلك الفترة قد عدت من باريس بعد السنة الأولى على ذهابي واتصلت بهبى – كانت تعمل وقتها في وزارة الخارجية حيث وجد لها أخوها عملاً بعد أن تركت بيتها الزوجي – ودعوتها إلى الغداء عندي في البيت، فأتت. كانت والدتي في المطبخ تحضر لنا الطعام وكنت أساعدها في تحضير بعض الأشياء وكانت هبى تتصفح الجريدة لحظتها.
فتحت الباب وأخذتني الدهشة لكني تمالكت أعصابي يومها وقلت له تفضل، كنت أعرفه جيدا وكان يعرفني جيداً. دخل بدون تردد كأنه واثق مما يفعل. رفعت هبى عينيها عن الجريدة لترى من الآتي، نظرت إليه، ابتسمت بهدوء وعادت إلى قراءة الجريدة. ظل واقفاً فطلبت منه أن يجلس ويستريح فأجابني : "لا شكراً" وحاول العودة نحو الباب، ألححت عليه بأن يبقى ويتناول الغداء معنا أو أن يشرب القهوة، فرفض وخرج بسرعة.

- كان يراقبني على ما أعتقد، قالت هبى، وإلا كف عرف منزلك وأنا حتى الآن كنت لا أعرفه؟
- ربما، أجبتها ولكنه ماذا يريد؟
- يريد وبكل بساطة أن "يحط على عيني"، كما يقال، يعني أنه لقطني في الجرم المشهود قالت، لكن لا بأس ربما هذا الأمر سرع القضية.

تناولنا الغذاء ودخلت أمي غرفتها لتستريح وجلسنا أخبر هبى عما فعلناه في باريس في الجامعة وما هي النشاطات التي قمنا بها وأين وصلت في عملي، ثم عرضت أمامها بعض لوحاتي الجديدة، وتحادثنا بكل المواضيع حين نظرت إلى ساعتها وقالت:

- الآن سأذهب وأراك غداً، كانت الساعة وقتها تقارب السادسة مساء.

نزلنا معاً، من البيت وكنا ما زلنا نتحدث ونحن نتوجه نحو سيارتها حين رأيت سيارته على الرصيف الثاني، كان جالساً في داخلها كأنه ينتظر.

- هبى قلت بصوت منخفض، إنه هنا.

لم تفاجأ فقط قالت: "إنني كنت متأكدة من ذلك".
صعب علي حينها أن أتركها وحدها وخفت عليها...

- أصعد معك إلى السيارة وأوصلك إلى البيت وأعود بالسرفيس قلت لها.

ضحكت وقالت : عد إلى بيتك فأنا سأتدبر أمري.
صعدت إلى سيارتها وانطلقت كأنها لم تر أحداً، فانطلق وراءها. يا إلهي ماذا سيفعل لها؟ هل سيضايقها؟ "رما قتلها" قلت بصوت عال.
كانت ليلة سوداء أمضيتها أعد الدقائق حتى الصباح الذي تباطأ يومها بشكل مميت.
في اليوم الثاني اتصلت بها.

- ألو
- ألو، ردت. سمعت صوتها وارتحت. إنها في مكتبها.
- إني آت لشرب القهوة معك في المكتب. دقائق قليلة وأكون عندك، فأنا لا أستطيع الانتظار حتى الظهر لمعرفة ماذا حدث، قلت لها.

دخلت مكتبها، كانت تبتسم.

- تفضل، قالت، ماذا تريد أن تعرف؟

- لم أنم الليلة يا هبى، وأخذتني مخيلتي إلى أماكن بعيدة جداً.
- هل ظننت أنه سيستعمل مسدسه ويقتلني؟ قالت ضاحكة.
- ربما. أجبتها، أو ربما افتعل حادثاً أو... ألف فكرة مرت في رأسي.
- لا، طمن بالك، أجابت، فهو أرقى من ذلك أعرفه جيداً.
- ولكن لماذا لحق بك؟ سألت
- فقط ليكلمني، وكان لطيفاً جداً، وضحكت بصوت عال.
- فقط ذلك،
- رشفت القهوة من فنجانها وقالت:
- لحق بين حتى وصلنا إلى طريق واسعة، فأسرع وتركته يسبقني ففعل وتوقف فجأة قبالة سيارتي وفتح زجاج نافذة سيارته فتوقفت وفعلت مثله وقلت له "نعم ماذا تريد" فأجابني: "فقط كلمتان سأقولهما لك، إنك شرموطة مثل كل النساء وكنت أظنك غير ذلك". وبكل برودة أجبته : "أود أن أكونها ولو لمرة واحدة إذا كان ذلك يريحك ويسهل الطلاق" وبدون أن أسمع ماذا أكمل تابعت سيري وذهبت إلى البيت.

هل ظل يلاحقها؟ لم أعد أسألها ولم تقل لي شيئاً بعدها.

الفصل التاسع

توجهت إلى المقهى قبل الموعد. طلبت القهوة وأخذت أقرأ الصحيفة. في تمام العاشرة رفعت عيني ونظرت إلى الخارج وإذا بها آتية، وكعادتها دخلت المقهى بدون أن تنظر إلى أحد حولها وتوجهت ناحيتي. صبحت، جلست، ونادت الغارسون وطلبت القهوة. كان أول سؤال عندي:

- هل استمر في ملاحقتك؟

فاجأها السؤال وبدت الدهشة على وجهها وسألت : "من؟ وبماذا تفكر"؟

ابتسمت وأخبرتها كف أمضيت ليلة البارحة فضحكت وقالت: ألم أخبرك يومها ماذا جرى؟

- لا. قلت، أم أنني نسيت، على كل حال لا أذكر شيئاً الآن.
- على كل حال أصبح ذلك من الماضي، والماضي "البعيد جداً قالت ثم تابعت : يومها عددت إلى البيت فوجدت أخي هناك وكان التوتر بادياً على وجهه بالرغم من أنه استقبلني بشوق وقبلني أكثر من العادة. لكن بعد قليل ناداني جانباً وقال لي:
- اتصل بنا روبير إلى هنا كان يريد التكلم إلى والدي وحين سألته ماذا يريد قال : "روح شوف اختك وينها".
- إنها حرة بأن تكون أين تشاء فماذا تريد منها؟ أجبته.
- إنها في بيت عشيقها، قال، لحقت بها وتأكدت من ذلك.
- وبماذا أجبته؟ سألت.

كانت ثقته بي كبيرة وقال لي:

- طلعت عليه بالعالي وقلت له : لماذا تلاحقها، ألم تنفصل عنك؟ أتركها وحالها. وعلى كل إذا علمت مرة ثانية أنك تلاحقها أو تراقبها تعرف ماذا يحل بك. فلم يجب وأقفل السماعة. والآن أقول لك إذا لمحته مرة يطاردك فاعطني علماً؟

كان متحمساً جداً وكان لم ينس بعد ماذا فعل بي روبير في المطار. كان أخي هو نفسه يرافقني يومها حين أوقفنا رجال الأمن وردوني إلى البيت. أظنك تذكر ذلك جيداً. وفي طريق العودة كان منزعجاً جداً وقل لي يومها: "لو رأيته الآن لقتلته". أخي هذا شاب متحمس جداً وشجاع، هو نفسه الذي استنفر رجال العائلة وطوق المخفر يوم أصبت وأنا صغيرة في الضيعة.

- والآن هل طاردك أحد ليلة البارحة قلتها مازحاً.

ضحكت وقالت: لم أعد إلى بيتي البارحة، فالوقت كان متقدماً، كما تعلم، ومهما قيل عن أمن بيروت اليوم فلم أجسر على الذهاب وحدي كل هذه المسافة، فقررت البقاء هنا وذهبت إلى بيت أخي في بيروت حيث أمضيت ليلتي فيه.

- خيراً فعلت، قلت لها، من الأفضل عدم المخاطرة بعد.

وما هي إلا دقائق حتى تجمع الأصحاب وتوسعت الحلقة ودارت الأحاديث حول السياسة والفكر والمسرح والشعر... جميلة أجواء بيروت وأهلها ما زالوا أقوياء وذهنهم ما زال متيقظاً.

مرت بنا إحدى الصحفيات وصافحت الجميع لكنها سلمت على هبى وكأنها لا تعرفها، لاحظ ذلك الدكتور عيسى وقال لها: "ألا تعرفين الدكتوره هبى...؟" اندهشت وقالت : "إنني حزينة الآن". كنت أود أن تكون الدكتورة هبى بشعة كما أتصورها. فحين أقرأ لها بعض المقالات أتصور أنها قاسية وبشعة ولكن أن أجدها بهذا الجمال فأمر يزعجني حقاً ويثير غيرتي، فأتى تعليق بعض الحاضرين، وهو كاتب معروف، طريفاً جداً إذ قال: "نحن نقول لماذا لا تنظر النساء إلينا. تاري عيونهن مفتوحة على بعضهن". أعجبني التعليق كثيراً وأثنيت عليه وأثنت عليه هبى وقالت لصاحبه:

- تعليقك يا رشيد نافذ ككتاباتك التي أحب.

شكرها رشيد على كلامها وقال :

- تحبين كتاباتي لأنك تحبينني ولكن غيرك أو البعض منهم لا يرى فيها شيئاً.
- ضحكت هبى وكأنها تعرف ماذا يقصد وقالت:
- أعرف ذلك وتابعت متوجهة إليّ حين كتبت تعليقاً صغيراً عل كتابه "أهل الظل"، اتصل بي المسؤول عن الصفحة الثقافية في الصحيفة وقال لي : إني لا أفهم ماذا تقصدين من تعليقك هذا، فأجبته : "هل فهمت قصة رشيد"، فأجابني "لا" فقلت له : "انشر التعليق إذا أردت فربما غيرك فهم رشيد وفهم تعليقي". هكذا كان نشر التعليق يومها لأن الصحافة عندنا ما زالت أجواؤها ديموقراطية قالتها ضاحكة.

الأجواء الثقافية في بيروت كما تراءت لي في تلك الجلسة، فيها الكثير من الاستعراض وقليل من الأصالة. وهذا ما قلته لهبى حين تفرق الأصحاب فأجابت.

- وبالرغم من ذلك إنها جميلة، وحرب الكلمة تظل أرقى من حرب المدافع واستعراض العضلات الفكرية يبقى الطف من استعراض عضلات المسلحين والمقاتلين، والآن ماذا تريد أن نفعل اليوم؟ سألت.
- ماذا كنت ستفعلين لو لم أكن معك؟
- في الواقع لست أدري، لكن علي أن أتفقد وضع ابنتي ثم أقرر، فهي الآن ستستقبلني بنوع من القرف لأنني تركتها طويلاً. إن غبت عنها يوماً واحداً يبدو لها هذا اليوم كأنه سنة وتستقبلني بعده دائماً بالعتاب: "وأين كنت كل هذا الوقت...".

صمتت قليلاً ثم قالت :

- سأتركك الآن لأدبر أموري. لكن كيف سنلتقي لاحقاً؟
- سأعرف كيف ألقاك، أجبتها، الآن سأتجول في المدينة. إلى اللقاء. وذهبت وقفت على الرصيف أفكر بماذا سأفعل ثم سرت لا أدري إلى أين.
- "الشيخ عمر هنا" سمعت. رفعت نظري وإذا بي أرى الشاعر مصطفى.
- هذا انت، قلت.

تصافحنا وفرحت بلقائه وبوجودي في بيروت حيث كيفما توجهت تُعرف وتَعرف حتى بعد غياب طويل.

- متى عدت؟ سألني
- البارحة أجبت
- وماذا أنت فاعل الآن؟ سأل
- لست أدري. كنت في المقهى، والآن كنت أحاول السير واكتشاف المدينة من جديد،

سار معي ومضت لحظة صمت بيننا أعادتني إلى الماضي.

كنا جالسين في المقاعد الأمامية في صالة كبيرة من صالات كلية التربية أنا وهي وهو... زوجها وكان مصطفى يلقي شعراً عن بيروت وعن العسكر وعن... كنت أراه يقرأ شعره وينظر فقط إلى هبى. إحساسي لم يكن خاطئاً، فقد قالت لي في اليوم الثاني "هو أيضاً اتهمني بأن مصطفى كان يقصدني بشعره". فقلت لها وقتها: "الم تري نظراته إليك؟

أجابتني وبصدق: لا بل رأيته ينظر إلى فتاة أخرى في الصالة.

كانت هبى على حق فتلك الفتاة هي الآن زوجته وقد أغرما ببعضهما جداً في المرحلة الجامعية.

- كيف حال مهى؟ سألته
- إنها جيدة وهي الآن في باريس مع الأولاد، قال، أنا هنا أتخبط وحدي وأتمزق بين البقاء هنا أو الرحيل، ولكن سأرحل. لم أعد أستطيع نحمل الوحدة بعيداً عنهم.

وجدت نفسي من جديد أمام باب المقهى. كنت قد سرت معه بدون أن أدرك تماماً الاتجاه ظاناً أنه هو الذي سار معي.

- هل تدخل؟ أدعوك على فنجان قهوة، قال
- لا، أجبته، على بعض الأشغال، أراك فيما بعد.

تركته وتوجهت حيث كنت متوجهاً، قبل لقائه. شعرت بالجوع حين مررت بقرب أحد المحلات التي تبيع السندويشات. اشتريت اثنين وبدأت بأكلهما وأنا أمشي. ثم استدركت الأمر وقلت لنفسي سأعود إلى غرفتي لأرتاح قليلاً، وفي المساء أفاجئها في البيت وهكذا أتعرف على ابنتها وأعرف ما هي هذه الأكذوبة التي تعمل منها سراً.

الفصل العاشر

بيتها مضاء. إذا هي هنا.

- أهلاً قالت حين فتحت الباب، ادخل. كيف أمضيت يومك؟
- لا شيء مهم، أجبت، ودخلت متهيئاً لرؤية الطفلة، لم أجد أحداً، فقط الكتاب الذي وجدته البارحة، مفتوحاً على الطاولة.
- أين ابنتك؟ سألتها.
- أخذتها إلى بيت أختي. كنت أتوقع مجيئك. إنها لا تحب زوج أختي لكن للضرورة أحكامها أحياناً.

جلست بهدوء وقبل أن أقول شيئاً سألت:

- ماذا تريد أن تشرب؟
- القهوة، قلت
- لا. ليس من القهوة الآن، إني أقصد المشروبات الأخرى.
- ويسكي، قلت لها، بعد تردد، إذا كنت تصرين.
- طبعاً أصر، أجابت، فالسهرة طويلة. أما أنا فسأشرب العرق.

دخلنا المطبخ وأحضرنا بعض الطعام السريع والمشروب وعدنا إلى الصالون كل منا إلى مقعده. رفعت كأسي وقلت:

- بصحتك يا هبى.
- بصحة وعافية لبنان أجابت. وقتها صحتنا كلنا تكون جيدة وأخذت تشرب بنهم وأفرغت كأسها الأولى بسرعة. ما كنت أعهدها تشرب أو تحب الكحول.
- هل تعودت الشرب سألتها؟
- لا. أجابت إني لا أشرب إلا قليلا وفي المناسبات. أوليست مناسبة أنت كون هنا في لبنان وفي بيتي بالذات بعد غياب خمسة عشر عاماً.

سكبت الكأس الثانية وقالت:

- هيا اشرب كأسك واسكب. ففعلت وصمتت.

بعد قليل لاحظت أن عينيها أحمرتا نوعاً ما وانشرح وجهها وأصبح يلوح عليه بعض الشهوانية. لم أرها في هذه الحالة من قبل فماذا تضمر لي. ثم نظرت إلي بنوع من الدلال وابتسمت ثم قالت:

- والآن هل تخبرني عن حالك يا عمر وأين أصبحت؟
- أصبحت زوجاً وأباً لثلاثة أولاد. هذا كل ما أصبحت، أجبتها.
- شيء هائل، إنه لأمر عظيم أن ينخرط الإنسان في قانون الحياة ويتبعه، قالتها بنوع من السخرية ثم تابعت.
- وهل انت متكيف مع وضعك؟
- لماذا تتلأمنين. يا هبى؟ سألتها بنوع من الجدية.
- أبداً! ففي الحقيقة أنا أحسد كل إنسان تزوج وأنجب الأولاد وعاش كغيره بدون أن يطرح على نفسه سؤالاً. وددت كل حياتي أن أكون هكذا، ولو استطعت أن أقوم بذلك لكنت أرحت واسترحت.
- لكنك رفضت، أجبتها، كان لديك كل شيء ورفضته
- فقاطعتني.
- وهنا تكمن المشكلة. فلماذا بعض الناس يولدون وبرأسهم نوع من السوسة تنخر راحتهم دائماً وتجعلهم في حالة قلق دائم وعدم اكتفاء دائم وتذمر دائم و... شبه تشاؤم دائم؟

لم أجب، فقط نظرت إليها وتابعت حركاتها. كانت ترفع كأسها الثانية وتوصلها إلى فمها وترشف قليلاً، فيتناقص السائل ببطء كبير وكأنها لا تشرب منه.
لاحظت نظراتي وموضع انتباهي؟

- أنا لا أشرب، تعرف ذلك، لكن الكأس الأولى شربتها بسرعة لأني كنت أشعر بأني بحاجة إلى الكحول. أما الآن فقد ارتوبت ولن أكمل الكأس الثانية. فكلما شربت يكون الأمر هكذا وكل من يشاركني الشرب يقول لي: "لا تعرفي أن تمزمزي". يبدو أني لا أعرف متعة الشعرب، والأمر ربما كان صحيحاً. لأني لا أطلبه إلا نادراً أو مسابرة.
- لكل متعته الخاصة وطريقته الخاصة، أما أن تسايري فهذا ما لا أعرفه عنك أجبتها ضاحكاً.

لم يضحك، بل تغير وجهها.

- المسايرة. قالت، وهزت برأسها ثم أكملت، هل تعلم أننا نمضي أكثر أوقاتنا في المسايرة. وللمسايرة أهداف معروفة. فإما أن تنتظر منها ربحاً معيناً. أو أنها لقتل الوحدة والخروج منها. فالشق الأول لا أستطيع القيام به ولم ولن اساير اطلاقاص طلباً لكسب معين. أما الشق الثاني فإنه يهلكني... أو بالأحرى كان يهلكني... ولكنه يستمر وفي بعض الحالات يدوم ويفرض علي إلى درجة تجعلني اقتنص أوقاتي اقتناصاً.
- أنت تقولين ذلك! سألتها بتعجب، فكل وقتك لك وكثيرون يحسدونك على وضعك.

هزت برأسها وقالت: يحسدونني لأنهم ليسوا في مثل وضعي. وهنا المفارقة. أراهم سعداء بما ليس عندهم، وأراني تعيسة بما عندي. يحبون فيسعدون وأحب فأشقى.

- وكيف ذلك ألم يسعدك الحب؟ سألتها.
- بلى. إذا وجد حقاً. أجابت، يعني أن تتمكن من الحب بدون تضحية. يعني أن تكون أنانياً وأن تحب مع ذلك.
- لا حب بدون تضحية، فأحياناً التضحية تجلب السعادة، أجبتها.
- هذا ما لا أفهمه يا عمر، وقصة الحب السعيد تذكرني بالقصة التالية، إنها قصة بسيطة جداً ولكنها أعجبتني لأنها معبرة، قالت.
- ما هي ؟ سألت.

رشفت قليلاً من كأسها وأعادته إلى مكانه وضحكت بصوت عال. "إنه العرق" قلت لنفسي، لكن سرعان ما أخذ صوتها نبرة جادة وقالت"

- يروي أن شاباً أغرم بفتاة جميلة، وهي أغرمت به حتى الموت كما يقال. فتزوجا وكان لحبهما نهاية سعيدة جداً. لكن هل تعلم على ماذا كانت قائمة سعادتهما؟ سألت.
- على الحب طبعاً.
- لا يا غبي، بل على المسايرة وعلى ما نسميه التضحية.
- كيف؟ سألتها بطريقة آلية.
- يبدو أن الزوج في هذا الزواج السعيد كان يحب لب الخبز، أما الزوجة فكانت تحب القشرة...
- وما المشكلة؟ سألتها، فهذا يعني التكامل.
- نعم. أحسنت! ولكن، وبما أن السعادة لا تقوم إلا على التضحية، فهل تتصور ماذا كان يحدث؟ كان الزوج ولأنه يحب لب الخبز، يظن أن زوجته هي أيضاً تحبه، فكان يقشر الخبز بلطف ويقدم اللب لزوجته التي كانت هي وبما أنها تحب القشرة وبما أنها كانت متفانية بحبها لزوجها فكانت تقبع القشرة برقة عن اللب وتقدمها إلى زوجها. فهو كان يضحي بما يحب من أجل اسعادها وهي كانت تضحي بما تحب من أجل اسعاده وهو يأكل ما لا يحب ويسعد وهي تأكل ما لا تحب وتسعد وأمضيا حياتهما السعيدة كل منهما يضحي

من أجل الحب واستمراره ولم يذق أحد منهما مرة واحدة ما يحب حقًا، لكنهما كانا سعيدين، فهل فهمت الآن؟

- هذا لا يعني المسايرة، أجبتها، بل يعني عدم الصراحة، فلو صرح كل واحد منهما بما يحب لكانا حققا سعادتهما بدون تضحية. عندئذ لكان كل واحد منهما عاش في عزلة، ولم يعد أحدهما بحاجة إلى الآخر. والعزلة تعني الوحدة وكلنا نهرب منها حتى ولو كان الثمن المسايرة والتضحية الكاذبة.
- وهل تسايرين في علاقتك بصديقك؟ سألتها
- أوف. كثيراً، قالت، لكنني أرى ذلك وهذا ما يؤلمني لأنني لا أحد سبباً للتضحية. لكن حين أريد الهروب من وحدتي أحب وأكون شقية وسعيدة في نفس الوقت وحين أعود إليها لا احب وأكون سعيدة وشقية في نفس الوقت، فأهجرها من جديد وأعود إلى المسايرة وهكذا تدور الدوائر على ذاتها وتتكرر الأوقات ويدور الزمن على ذاته: هرب ولجوء وثم هرب. لكن... قالتها وصمتت.
- لكن ماذا
- لكن الوحدة شيء رائع.
- إبقي فيها إذن وتخلي عن المسايرة والتضحية التي تؤلمك.
- لا استطيع دائماً، فأحياناً تكون الوحدة خرساء. ولكن حين تنطق فهي أفصح من عرفت ومن سمعت ومن قرأت. الناس يهربون من وحدتهم لأنها غالباً خرساء. لكني تعودتها وتعودت سكوتها وحاولت معالجتها حتى دجنتها وعلمتها النطق، فأصبحت تتكلم وأحياناً لغتها صعبة ومؤلمة. وحين أخلو إليها أتذكر أحياناً، المرحوم كمال الحاج. أتذكر كيف كان يفسر لنا كلمة إنسان؟ تابعت:

كنا في حينه نهزأ منه، نرى أنه يحب الفذلكة اللغوية. لكن لا! الإنسان حقاً إنسان أي أنس وأنس أي اثنان. مهما توحد فهو اثنان وهنا تكمن البلية. فإما غرم وتوحد وحالة سلم أو انتقام وعذاب وحالة حرب. أحد الانسين وهو الواجهة التي تتخذ عادة مكان الاثنين، هو الصورة المعروفة المكونة عند الآخرين عن الشخص وغالباً ما تصبح صورة الشخص هذه هي ذاته فتتقولب وتحاول المحافظة على ذاتها وتمثل الدور الذي ارتآه الآخرون لها ويتقمصه الشخص لكثرة ممارسته له.. لكن حين تلتقي هذه الصورة مع الانس الآخر داخل الإنسان يدور العتاب وتتكشف الأقنعة وتنهار الصورة ويبدأ الدفاع الفاشل لأن الانس الثاني وهو عادة الغائب هو الأقوى في الوحدة، هو مرآة صافية، فيها تظهر كل التفاصيل، حتى الدقيقة جداً منها. إنها كالمشرحة تضع في النور كل ما نحاول كبته ورفضه وكل ما يستره القناع الاجتماعي. إنك في هذه الحالة يا عمر أمام عالمين مختلفين حتى التناقض وأنت كإنسان عليك التوفيق بينهما فتحتار. إن وفقت بينهما أو حاولت ذلك عشت على حبل مشدود، وإن هجرت أحدهما عليك أن تنسى الآخر كلياً وإلا عذابك سيكون كبيراً والعذاب في الحالتين ليس واحداً...

صمتت كأنها غرقت في ذاتها ولم تعد تراني فسألتها:

- وما الفارق بين العذابين؟ أكملي.
- فإن اخترت عالم الصورة والقناع وانخرطت في المجتمع وتقمصت دورك جيداً، يعني إذ قررت على إلغاء الانس الثاني فيك، عذابك يخف وتسمى حينذاك انساناً متكيفاً تتلاءم مع كل الظروف. إنك تصبح انساناً اجتماعياً مثالياً ولكنك تبقى نصف انسان في الحقيقة، ولهذا السبب وامعاناً في الخروج تقع من جديد في الوحدة لأنك أصبحت انساً واحداً، فتبحث عن الآخر خارجك وتحب وتتزوج لأنك بحاجة إلى آخر ولكن هذا الآخر لا يملأ نفسك كلياً فيأتي الأولاد ويأخذون كل وقتك وحينها تتحول نهائياً إلى انس اجتماعي يفني نفسه في سبيل أولاده، تكد وتعمل وتربح وتشقى، كل ذلك في سبيل هؤلاء الأولاد. لكن الانس الآخر

فيك والذي حاولت اسكاته والغاءه نهائياً يظل موجوداً بدون أن تدري وهذا ما يجعل من الآباء عادة مربين وتكون التربية في أن يحقق أحد الأولاد ما لم يحققه الأهل. لكن الأولاد هم غير الأهل وزمنهم غير زمن الأهل وتطلعاتهم غير تطلعات الأهل، فيدور الصراع وتتجدد اللعبة. لكنها لعبة سهلة فيها يتحدد البشر وتستمر الانسانية. إنها أسهل الطرق لاثبات قانون معين وهو قانون العدد الذي يسير الكون والطبيعية إنه قانون التكاثر وهو قانون الجهد الأقل la loi du moindre effort اسمه، كما ترى، بشع ولكنه مثمر جداً لأنه أساس التكاثر. فهو القانون بالأحرف الكبيرة وإلا لما استمر الكون ولما استمرت الطبيعة ونمت وتجددت.

صمتت من جديد كأنها لا تراني وكأنها أصبحت وحدها، ونسيت قدحها ولم تعد تشرب. فقط رفعت رجليها على الطاولة أمامها وأسندت رأسها على ظهر الكنباية وغابت، لست أدري إلى أين. انتظرت قليلاً علها تعود فوجدتها تسترسل في ذاتها. هل أنه مفعول العرق قلت لذاتي، لكنها لم تشرب إلا قليلاً. قررت أن لا أتركها هكذا، فأجليت صوتي بتنحنحة خفيفة وقلت:

- هذا الشق الأول فأين الشق الثاني؟ لقد وصلت هنا في الاختبار الاول إلى قانون الجهد الأقل فأين يوصلنا الاختيار الثاني؟

أجابت وكأنها لم تتوقف عن التفكير في نفس الموضوع، وكأنها لم تصمت أبداً.

- الاختيار الثاني مأساوي يا عمر وقانونه الافلات منه، يحكمه قانون الجهد الأكبر إذا اردت تسمية لقانون لكن هذا الجهد عقيم على صعيد التكاثير، إنه يضعك في عالم تأمل وربما أوصلك إلى التصوف حيث التوحد الكامل والخروج على القانون وعلى الكتب التي أوصت بالتكاثر والاستمرار. تصل في هذا العالم إلى مرحلة الألوهية. فالله واحد، لم يتكاثر، فقط أبدع فخلق الكون. عالم التوحد هو عالم الخلق والخلق عقيم لا يتكاثر وحتى قانون التكاثر الذي أبدعه الله في خلقه وضع له حدوداً لا يستطيع أحد تخطيها لقد حد التكاثر بالموت. فمن يخرج على هذا القانون يحيا ويخلد بينما من يندمج فيه ينتهي فيه من يبدع ويخلق، لا يموت فقط من يلد يموت، يموت حين يلد لأن الأولاد موت أهلهم ول يقومون إلا بالغاء هذا المنتج وعلى حسابه. خذ مثلاً اللوحة أو القصيدة أو القصة او الاكتشاف أو أي ابداع، ترى أنه ابن فاضل يخلد واضعه أو من يلده، بينما الولد ماكر لا يتحقق إلا بقتل الأب أو الأم. لكن من وضع قانون التكاثر، وضع معه وفي نسيجه قانون الجهد الأقل وقانون عدم الاكتراث كي يضمن نجاحه. ومن يخرج عليه فهو الشواذ الذي يثبت القاعدة وإلا لانتهى الكون وفشل الله في مشروعه والله كما يبدو لا يفشل.
- لكل قانون حلاوته ومرارته، قلت لها، فلماذا تعقدين الأمور هكذا؟
- إذا اختيار الثاني هو أن تخرج على القانون الأول، يعني أن تتخلص من كل الروابط الاجتماعية التي تتلخص مهمتها الوحيدة في قتل وقتك وأخراجك عن ذاتك. وحين تخرج على هذا الوضع القائم لا تصبح وحيداً لأنك تريد ذلك بل ينبذك المجتمع وتصبح انساناً فرداً، ولا قيمة للفرد عندنا. الكثرة أقوى منه، تعزلك كالمصاب بالطاعون فقط لأنك عبرت عن أفكارك بصدق وأمانة. تدخل في ذاتك وتحاول التحدي لأنك مقتنع بما تفعل ولا يعود لديك سبيل للقول إلا الكتابة فتفعل عل الكتابة تكون تمهيداً لممارسة الذات والقبول بها اجتماعياً، فترفض ولا ينشر لك لأنك صادق، فتحبط وتعود إلى كهفك فتختنق لأنهم أقفلوا كل النوافذ. ترتدي قناعاً واقياً وتخرج فينهمرون عليك لأنك انهزمت ودعت إليهم وأحياناً تقرأ الشماتة في عيونهم، هذه الشماتة التي تأخذ أحياناص طابع الشفقة. يحاولون اقناعك بأنهم يشفقون عليك لأنك لست مثلهم، فيؤلمك ذلك لأنك مقتنع أنهم تعساء أكثر منك وأنك حين تحاول أن تدخل عالمهم تكون مخجولاً لأنك تمارس الخيانة.

لا أستطيع أن أكمل معك وأخون ذاتي وانقض مبادئي هكذا أجابتني يوم قلت لها إني أفضلها على انغرد وأني أريد أن أكمل معها.
أتت من لبنان يومها إلى باريس بعد أن اخبرتها كذباً بأنني مريض وأدخلت المستشفى، أتت بسرعة وكانت انغرد معي في باريس. استقبلتها في مطار أورلي وأتينا إلى البيت اللبناني حيث كنت مقيماً. وعلى باب المصعد اقتربت انغرد مني وكلمتني ثم عادت إلى مكانها في البهو كأنها طالبة عادية. لم تنتبه هبى لذلك وافترضت أنها زميلة في الجامعة أو في البيت. وصلنا إلى باب الغرفة، غرفتي، فوجدت ورقة معلقة على الباب سحبتها بسرعة ووضعتها في جيبي قبل أن تقرأها هبى وحين سألتني عنها، قلت لها إنها دعوة للاجتماع مع أعضاء الحزب. لم تعلق بشيء لكني قرأت الانزعاج على وجهها. كنت يومها مرتبكاً ولا أدري ماذا أفعل. كان علي أن أهدئ انغرد وأقنعها بأن تقلل من الحاحها، في هذه الفترة علني أتدبر أموري. استأذنت من هبى قائلاً: "إنهم ينتظرونني في البهو سأعتذر منهم وأعود بسرعة".
كانت انغرد وحدها تنتظرني. بادرتني بقولها : "إنها كما وصفتها لي" ولكني أحبك وسأنتحر إن تركتني" وأخذت تبكي. يا لها من لحظة صعبة. "أهدئي يا انغرد فأنا لك. لكن أعطني المجال كي أتصرف مع هبى" قلت لها بحزم وانصرفت.
صعدت إلى الغرفة فإذا بهبى جالسة على حافة السرير ورأسها بين يديها. بعد وقت قصير لم أدر فيه كيف أتصرف رفعت هبى رأسها وقالت: "إنه رسمها". مشيرة إلى لوحة على حافة الجدار. هززت رأي يومها إيجاباً، فلم يعد من مجال للكذب لقد رأتها. فقالت لماذا الكذب يا عمر، في المرة الماضية قلت لي إن هذا الرسم هو لاحدى الفتيات التي لا تعرفها والتي كانت مرة في أحد المقاهي. وقتها صدقتك لأنني كنت أحبك ولم يخطر ببالي أنك تكذب ولم يخطر ببالي لحظة واحدة أن أحداً منا يضطر إلى الكذب، فإننا متفقان على ذلك حتى ولو أدى الأمر إلى انهاء العلاقة. فلماذا تخاف. وما الكذب إلا دليل خوف.

- "لا. أحبتها، الكذب كان فقط كي لا أفتقدك لأنني أحبك وهذه الفتاة الصغيرة، لا تعلم ماذا تريد وستعود إلى بلادها غداً فلا داعي للقلق".
- "تعرفني جيداً يا عمر، قالت، فلماذا تحاول". ثم نهضت وتوجهت نحو خزانة الثياب قائلة: "تركت عندك في المرة الماضية بعض الملابس سآخذها وأرحل إلى الأوتيل وأفسح لك ولها في المجال حراً".
- وددت لحظتها أن أختفي من وجهها، كرهت نفسي وكرهتها لأنها وضعتني أمام الباب المغلق، وانشلت قدرة التفكير عندي ماذا سأفعل وثياب انغرد تملأ الخزانة الآن وماذا ستقول هبى وبماذا سأجيب؟ لم تقل شيئاً لحظتها، فقط أخذت ثيابها، وضعتها في حقيبتها واستعدت للذهاب. لم أعد أذكر ماذا فعلت ولكنها كانت لحظة جنون، انقضضت على هبى، سحبت الحقيبة من يدها وصرخت: "لا ترحلي يا هبى وتهدمي ما بنيناه معاً بسبب طيش عابر وبسبب علاقة غير جدية" حاولت اقناعها بأن أنغرد سترحل وأنها فقط كانت لاخراجي من وحدتي في غيابها. أخبرتها يومها بأن زملائي اتهموني بفقدان الرجولة لأنني لا أعاشر البنات وما انغرد إلا لاسكاتهم والبرهنة على عكس ما يظنون. كانت كالصخرة جامدة. كأنها لم تعد تراني. رجوتها أن تبقى وقلت أنني سأدبر كل شيء ووعدتها بأنني سأتركها ترحل إذا لم تعد المياه إلى مجاريها ليلتها بالذات.
- "لا، أجابت، وفقك الله يا عمر. أتركني أرحل". كان صوتها يختنق ولكنها لم تنفجر ولم تقل شيئاً. فقط أخذت حقيبتها عن الأرض وتوجهت نحو الباب.

رافقتها إلى الأوتيل ليلتها وكان الصمت وحده رفيقنا. فمن جهتي لم أجسر على قول كلمة واحدة، أما هي فكنت أراها وجهاً مغلقاً. فقط قلت لها حين دخلت غرفتها في الأوتيل وحاولت اقفال الباب قبل أن أدخل: "هبى لا تظلميني وسأعود". لم تجب. أقفلت الباب وذهبت؟

لم أعد إلى البيت اللبناني في ذلك الوقت، ذهبت إلى ضفاف نهر السان وكان رأسي يكاد ينفجر حاولت درس الموضوع وحاولت أن أختار بين هبى وانغرد. شعرت لحظتها أنه كان على أن أختار بين وجهين لي. هل أختار الحل الأسهل وأترك هبى؟ لا إنها في نظري المثال الذي لن أتخلى عنه. لكن كيف أقول لها هذا وقد أصبح الوقت متأخراً جداً وفي مثل هذا الوقت لا أستطيع دخول الأوتيل وحتى لو دخلته فلا أظنها ستستقبلني.
عدت إلى البيت اللبناني وإذا بأنغرد تنتظرني وتبكي. ماذا أقول لها. هل أطلب منها أن ترحل وأن تتركني. وإذا لم تقبل هبى؟ أكون قد أضعت الاثنين معا. لا بأس سأقنع أنغرد بالرحيل وأعود إلى هبى فهي تفهمني جيداً وستعود بعد أن تهدأ العاصفة التفاهم ومعها أسهل وأوضح من التفاهم مع انغرد. حاولت اقناع انغرد بأنها صغيرة وجميلة وبأنها ستجد أفضل مني لاحقا، خاصة وأنني ما زلت طالباً لا أملك شيئاً. لم تجب يومها إلا بالبكاء والاصرار على أنها تحبني وتريدني حتى ولو كنت لا شيء. حاولت كل الأساليب الاقناع، لم تغير موقفها. أخيراً قلت لها أننا سنتدبر الأمور غداً وطمأنتها أنني لم أتركها علها تنام، وتتركني أفكر. لم تفعل لكنها ارتاحت قليلاً وأخذت تسألني عن هبى وتقنعني بأنها هي أيضاً جميلة ومثقفة... وبأنها إن خسرتني فستجد هي أيضاً من هو أفضل مني وذلك بطريقة سهلة.
لم يقنعني قولها، كنت قد أخذت قراري بأن أعود إلى هبى لكني كنت أجاريها في قولها لأريحها قائلاً في نفسي: ستعود إلى بلادها ولن يمضي وقت طويل حتى تنساني وتنسى علاقتها بي. إنها ما زالت صغيرة، ستنسى حتماً.
مضت تلك الليلة الصعبة وكانت انغرد قد هدأت قليلاً. استأذنتها في الصباح وذهبت إلى الأوتيل حيث هبى. "أنت فقط يا هبى، قلت لها، لا يوجد غيرك في حياتي. أنت اختياري وأنا لك وأنت لي فلا تمانعي. لقد أمضيت الليلة أفكر وقراري ليس عفوياً. أنا أحبك ولا أستطيع العيش بدونك". لم تجب فقط انفجرت بالبكاء وكأنها طفحت ولم تستطع التحمل. ثم هدأت قليلاً، استعادت صوتها وقالت : " لقد انتهى الأمر. عد إلى حيث أمضيت ليلتك واتركني. فأنا بالرغم من خيبتي لست حاقدة عليك بل..." لم تكمل قولها فتحت حقيبتها وأخرجت منها رسالة وسلمتني إياها وقالت: إذهب وستجد قراري في هذه الرسالة، لا قوة لي على الكلام الآن. يكفيني ما عانيت هذه الليلة، لكن قراري اتخذ.
كانت عيناها حمراوين ومنتفختين وذابلتين ومحبطتين. لم أعد أتحمل رؤيتها وصرخت : "هبى لماذا تهدمين كل شيء؟" ابتسمت بمرارة وأجابت: "سامحك الله! أنا الذي يهدم وتجسر الآن على اتهامي بما أنت فاعله". وأجهشت بالبكاء. وغضبت من نفسها لأنها لا تستطيع تمالك أعصابها وصرخت بصوت عال : ارحل عني ولا تفكر لحظة واحدة بأنني أبكي لفقدانك لقد انتهت بالنسبة لي وكل شيء ينتهي والنهاية تؤلمن مهما كانت. فاذهب واتركني. إني أقوى مما تتصور.
لم أتحرك من مكاني ولم أستطع أن أقول كلمة واحدة كنت كمن هبط من سطح عال ولم يصل بعد إلى الأرض "أخرج من هنا" صرخت ودفعتني نحو الباب.
خرجت وبيدي رسالتها.
دخلت أول مقهى على طريقي طلبت القهوة وفتحت الرسالة: "عمر هذا هو الواقع، يبدو أن الخطوط المتوازنة لا تلتقي وإذا التقت الخطوط فلأنها غير متوازية ولقاؤها حينذاك ليس إلا للحظة تنتهي... نعم تنتهي ليكمل كل خط مساره. هذا هو الواقع وهكذا أراه... هبى.
عدت في اليوم الثاني لأقنعها بأننا خطان ملتصقان وليسا متوازيين كما تعتقد. عدت استغفرها آملا أن تكون قد هدأت.

- لقد رحلت باكراً، أجابني حاجب الفندق.

لم أشعر لحظتها إلا بالدوار وبالضياع لكنها كانت قد رحلت.
نظرت إليها، كانت صامتة، أظن أنها صمتت منذ غبت عنها.

- هبى، قلت لها، لماذا لا تتزوجين وتخرجين من هذه الوحدة. ضحكت وقالت:

لا. فأنا مرتاحة الآن مع صديقي لأن علاقتنا مريحة. فهو لا يأتيني إلا ليعبر لي عن حبه وشوقه. وحين يكون منزعجاً أو مريضاً أو... فهو في بيته لا يحملني أي ازعاج. هذه العلاقة كما هي الآن ممتازة فما عدت أتحمل وجود شخص معي بشكل مستمر. حين أفكر بذلك أكاد أختنق. وما وحدتي التي أعود إليها دائماً إلا فترة تنفسي الحقيقي. لقد تعودت اللعبة الآن : أخرج منها وأعود إليها لأن التوفيق مستحيل. علينا أن نلعب فقط، إنه لعب يهزأ منك بالنهاية، وكثيراً ما ترى نفسك لا هنا ولا هناك بل مشدوداً على الخط الفاصل فتسقط لأن الخط لا يحمل ثقلاً، وترى نفسك من جديد في أحد العالمين فتفرح للحظة لأنك على الأرض ثم تمل المكوث حيث أنت فترحل وهكذا إلى أن يأتي الموت فيسمرك حيث لا اختيار ولا عذاب ولا تردد ولا تحد ولا خنوع ولا قمع ولا ... وحيث تسقط كل الأقنعة...

- وابنتك، سألتها، كيف تعيش معك في هذه اللعبة؟
- هي الآن منها، أجابت، إنها الجلاد والمنقذ في نفس الوقت. تكون جلاداً حين تخرجني بالرغم عني من وحدتي وتكون المنقذ الذي به أخرج من وحدتي حين أريد ذلك. إنها أنانية تريد أن تأخذ كل لحظات خروجي هذا لكنها طيبة لا تدري ماذا تفعل وأنا أحملها أحياناً كل أسباب فشلي وأجد فيها سبباً لتوتري وانزعاجي من نفسي. يبدو أنها ضرورية ودورها مهم داخل المسرحية. فحين لا أعود أرى سبباً لتذمري ووضعي المترجرج أسقط اللوم عليها كي أبرئ ذمتي لكن الأمر لا يدوم لأن اللعبة مكشوفة وهي أصعب الألعاب بعكس ما يظن الناس...

سمعت طرقاً على الباب. نظرت هبى إلى ساعتها وقالت: "في مثل هذا الوقت من الآتي؟ لا يأتي في مثل هذا الوقت إلا ناطور البناية أو هاني؟

انقبض قلبي حين سمعت اسمه. ماذا سيكون موقفي؟

- أهلاً، الحمد لله على السلامة، متى عدت؟ سمعتها تقول حين فتحت الباب.
- اليوم، أجابها صوت رجل، كيف حالك؟

ثم مضت لحظة صمت، بعدها دخلا.. وقبل أن يرتبك كل منا بالموقف قالت هبى متوجهة إلي:

- إنه صديقي هاني.

ثم توجهت إلى هاني وقالت: إنه عمر أو بالأحرى ملحم كما تسميه.

سلمنا على بعضنا بالأيدي وجلسنا.

- هيا اخبرنا، قالت هبى، كيف كانت سفرتك؟

أخبرها بإيجاز عن سفرته وقال لها مرات عديدة كم تمنى لو كانت معه. وبعدها قال : فلنخرج ونتناول العشاء في أحد المطاعم لقد أخذتم المقبلات هنا وسنكمل العشاء في مكان آخر.

لم أدر لحظتها ماذا سأفعل ولكن قراري كان سريعاً لأن الدعوة أتت كأنه يريد التخلص من وجودي.

- أنا أعتذر، قلت، علي أن أذهب.

حاولت هبى اقناعي بأن أبقى وبأنني أستطيع أن أنام في بيتها ولاحظت أنها كانت صادقة في دعوتها. أما هو فلم يقل إلا كلمات مجاملة.

- لا. أفضل الذهاب وسنلتقي في وقت آخر قلت.
- إذن سنوصلك إلى السرفيس قالت هبى ونظرت إلى هاني.
- حتماً، قال هاني، هيا بنا.

دخلت هبى إلى غرفتها. سألني هاني عن عائلتي وأولادي وشغلي وأجبته بإيجاز كلي عن وضعي محاولاً عدم الارتباك. أما هبى فلم تطل المكوث في الغرفة، بل خرجت بسرعة وكأنها تعرف أننا مرتبكان.

- هيا بنا، قالت، أنا جاهزة.

ركبنا سيارته وأوصلاني إلى التاكسي فنزلت مودعاً وقالت ضاحكة:
- لا تطل الغياب. فهاني ذهنه واسع ولا يغار. إننا ننتظرك. وذهبنا.

الفصل الحادي عشر

الآن عاد. علي أن أرحل إذن، جئت لرؤيتها، ولانقاذ نفسي من الندم والشعور بالذنب اللذين كانا يلازمان حياتي. لكن هل سأتخلص منها الآن؟ ولكني جئت لأطمئن على بلدي وأشهد بدايات السلم فيه. ماذا وجدت؟ بلد محطم ومنكسر ووجهها يعكس هذا التحطم وهذا الانكسار، وجه محبط تحركه من حين لآخر بعض من تقلصات التمرد وعدم الاستسلام التي ما أن تظهر حتى تخبو ليبقى القلق وعدم الارتياح سيد الموقف. كانت دائماً قلقة لكن قلقها كان يتفجر تمرداً وقوة واندفاعاً من أجل التغيير. أما الآن فماذا يعني قلقها سوى عدم التكيف الذي تعالجه بالعزلة وعدم الانخراط فيما يسببه؟ لكن ما دوري أنا هنا ولماذا أقحم نفسي في موضوع لا علاقة لي به؟ إنها الحرب وليس أنا السبب في كل ذلك. الحرب هي التي هزمتها كما هزمت غيرها في هذا البلد... فلو... لكنا هزمنا معاً.. ولكانت النتيجة واحدة.

كنت أشرب القهوة في تلك اللحظة في المقهى إياه في شارع الحمراء حين أتت وفاجأتني:

- صباح الخير، هل كنت تنتظرني؟ سألت.
- بالحقيقة لا. أجبتها، لقد عاد واعتقدت أنك...
- اعتقدت ماذا؟ اعتقدت أنني سأغير حياتي بعد مجيئه؟ لا فهو يقبلني كما أنا وإلا لما قبلت به. له أشغاله التي لا أتدخل فيها ولي مشاغلي التي لا يتدخل هو فيها.
- وهل تسمين هذا الوضع علاقة مريحة؟
- سمها كما تشاء. إنها نمط من أنماط العلاقات العديدة بين الناس، ولا أظنها أفضل أو أتعكس من غيرها. إنها كأي علاقة أخرى تسعد وتتعس في نفس الوقت. هل تظن أن غيرها أفضل منها؟
- لست أدري أجبت، فربما كنت على حق؟
- على حق، ومن منا يستطيع أن يدعي ذلك. كلنا تعساء ونحاول التكابر والتمثيل على الذات لايهامها بأنها على حق. لكن أين الحق وأين الصحيح يا عمر؟
- ليس من حق مطلق ومن صحيح مطلق، أجبتها، لكن الأمور كلها نسبية.
- نسبية حسب الناظر إليها، وليس في حد ذاتها، أجابت، والحياة مأساة كيفما نظرت إليها، نحاول دائماً ونفشل. كائن مصيره الموت هو دائماً كائن فاشل.
- لكننا نتكلم عن الحياة الآن فلماذا تقفزين إلى الموت بسرعة، فدونه مسار علينا القيام به وعن هذا المسار أتكلم، لا تختصري الأشياء هكذا قلت لها.
- لن أختصر، قالت، سأدخل معك في أدق تفاصيل هذا المسار فاعرضه كما تشاء وجمله قد المستطاع. هات من عندك.
- لا يستقيم النقاش والتفاهم إذا وضعنا النتيجة سلفاً، قلت لها.
- نلغي النتيجة ونحاول تجاهلها إذا أردت فقط في المسار فطالما أن النتيجة واحدة فليست مهمة، يبقى أن المسار هو المهم، وهنا مجال الاختلافات. المسار قصة فردية حتى ولو كانت كل هذه القصص متشابكة.
- هل أنتِ مرتاحة لمسارك؟ سألتها
- هذا سؤال كبير. أجابت. لا. لست مرتاحة ولا أظنني كنت مرتاحة لو كان غير ذلك. كل مسار متعب ولهذا السبب يأتي الموت ليحصد الجميع. فهو لا يوفر أحداً، والإنسان يموت لأن التعب أنهكه.
- تعودين إلى النتيجة وقد اتفقنا على تجاهلها، قلت.
- قلت فلنحاول تجاهلها لكنها تبدو أنها حاضرة أبداً. والآن سأصمت وأسألك بدوري هل أنت مرتاح لمسارك؟ وهنا تستطيع أن تبدأ من حيث افترقنا. مسارك الأول ما زلت أعرفه.
- هبي أجبتها، لقد دفعت بما فيه الكفاية، وما عدت إلا لأراك وأطمئن على مسارك انت.

- وهل اطمأننت؟ سألت.
- بكل صراحة لا. أجبتها وهذا يؤلمني. والآن أجيبيني بكل صراحة: هل كنت أنا السبب في طلاقك من زوجك؟
- ماذا تريد مني أن أجيبك؟ هل أقول: لا، وأريحك أو هل أقول نعم وأعذبك حين لم أعد أرى فائدة لا من هذا ولا من ذاك؟
- لا أريد مجاملة وكذباً، قلت لها، أريد الحقيقة لأن القضية تلاحقني منذ افتراقنا وكانت السبب في كل خلافاتي مع أنغرد فيما بعد.
- هذه قضيتك يا عمر، قالت، أما بالنسبة لي فالأمر انتهى منذ لحظتها. صفحة من حياتي وطويت. لماذا تريد إعادة فتحها من جديد؟
- لا أريد فتحها مجدداً، فقط أريد التحقق من سطورها.
- صفحة انتهت عندك بنقطة استفهام، أما عندي فانتهت بنقطة فقط. فاترك الأمور على ما هي عليه ولا تحاول العيش في ماض انتهى.
- الماضي لا ينتهي بكبسة زر، قلت لها، إنه يطارد أحياناً. ويطالب بالتوضيح لكي ينقذ الحاضر.
- أخبرني عن حاضرك الآن ولا تنظر إلى الماضي،
- لكن حاضري يعكره باستمرار هذه القضية غير الواضحة. لقد قلت لأنغرد في أول علاقتنا إنني كنت السبب في طلاقك من زوجك وإني أتألم لذلك، وبعدها، كلما اختلفنا على شيء أو ساد بيننا سوء التفاهم تتهمني بأنني ما زلت أحبك.
- وما الرابط بين سؤالك ووضعك مع زوجتك؟ تحاول معرفة شيء وتتهمك زوجتك بشيء آخر. كل النساء هن هكذا، إذا ابتعد عنهن الرجل قليلاً يتهمنه بأنه يحب غيرهن وهذا بنظري دليل إيجابي على اخلاصك لأنغرد، فإذا كانت تتهمك بأنك ما زلت تحبني أنا، فهذا يعني أنها لا تشك بأنك أحببت سواها بعد الزواج.
- لا! الأمر أكثر تعقيداً يا هبى، قلت، فكلما ابتعدت عنها قليلاً تعتقد لأنني لا أحبها، والسبب يعود، بنظرها، إلى ما كنت أخبرها عن صدق علاقتنا نحن وعن نوعيتها، كان ذلك حين حاولت اقناعها بأن تتركني وترحل عني. فهي حتى الآن لا تنسى ذلك وأحياناً تذكرني بأشياء أكون قد نسيتها، مرعبة ذاكرة النساء في هذا المجال. والآن أنتظر جوابك أنت.
- جوابي هو أنني لست نادمة على أي خطوة قمت بها في حياتي ولا أحمل أحداً مسؤولية ما قمت به، أما عن صدق علاقتنا الماضية فهذا أمر آخر.
- أفهم من ذلك.

وقبل أن أكمل قالت:

- أفهم ما تشاء... أما الحقيقة فهي أن الداخل هو الذي يحدد الخارج. الخارج يقدم الفرص أحياناً ولكن قرار الحسم هو دائماً للداخل.
- هل فهمت جيداً سألتها.
- لم تجب وصمتت كأنها تفكر بشيء ما وبعد قليل سألتني:
- هل أنت سعيد يا عمر؟ لقد اخترت الطريق الأسهل كما قلت لك فهل أسعدتك هذه الطريق؟ وكيف مشيتها؟
- كانت طموحاتي أكبر مما حققت بكثير يا هبى، هذا كل ما أستطيع قوله الآن.
- هل أنت محبط إذاً؟ كنت أظن أنك أنقذت نفسك مما مررنا به نحن هنا وبأنه كان باستطاعتك أن تحقق ما تشاء.
- أين أحقق ما أشاء؟ أجبتها، في مجتمع لا أعرفه ولا يعرفني؟ صدقيني أن عزلتي هناك كانت أضنى مما عانيتم أنتم هنا.

- هل تواسيني بهذا الجواب؟
- لا. أقول الحقيقة. لقد حاولت المستحيل لأندمج في المجتمع هناك كنت دائماً غريباً يتطفل على ما هو ليس منه.
- لكنك تزوجت منه وأنجبت فيه. وعلى ما أظن حصلت على الجنسية أيضاً فما معنى ما تقول؟
- الإنسان العربي هو كائن من الدرجة الثانية في أوروبا وذلك مهما علا شأنه وتطور واندمج في محيطه الجديد.
- ولماذا لم تعد إلى هنا؟
- كيف أعود وأنغرد لا ترغب في ذلك اطلاقاً ثم إني أصبحت أباً لأطفال أحبهم ولا استطيع أن أتركهم.
- كم ولد لديك الآن؟ سألت ناسية إنها سبق وسألتني نفس السؤال.
- ثلاثة، بنتان وصبي. إنهم كل فرحي الآن. الصغيرة أسميها هبى في سري لأنها تذكرني بك لا أدري لماذا. لكن، يا هبى، بدأوا يكبرون وبدأت أعاني فراقهم قبل أوانه. بعد قليل من السنين سيرحلون عنا كما رحلنا عن أهلنا وسأبقى وحيداً، مع أنغرد في بلد ليس بلدي. عدا عن أن الحوار معها شبه مغلق...
- لا تستبق الأمور، قالت، فما علينا إلا أن نعيش الواقع كما هو وليأت المستقبل بما يشاء. لكن هل الغربة وحدها سبب عدم سعادتك؟
- ألا يكفي ذلك؟ مع أنه ليس السبب الوحيد
- ألم تساعدك أنغرد على تخطي هذا الواقع؟
- قصتي مع انغرد هي قصة أخرى. لم تتركي لي المجال وقتها لأفهمك ماذا حدث.
- وحتى الآن لا أريد أن أعرف ماذا حدث. فهي الآن زوجتك وتعيش معك. أما قصة لقائكما فقد غابت مع الزمن البعيد وما عادت تهمني بشيء.

صمتت كأنها لا تمانع في أن تسمع ما أريد قوله فأكملت:

- عدت يومها، يا هبى، إلى الفندق حيث كنت، لأقول لك إني أحبك، ولم أكن كاذباً، وأن أستغفرك عن ذنب عابر لا يجوز أن يحطم علاقة صلبة كعلاقتنا. لم أجدك، كنت قد رحلت ووضعتني أمام حائط مسدود. شعرت حينها بالضياع وبالوحدة المطلقة. فهمت في شوارع باريس بحثاً عن لست أدري ماذا، وحين تعبت عدت إلى البيت. كانت أنغرد تنتظرني وتبكي. كان ألمها كبيراً:
- هل أمضيت النهار معها؟ سألتني وهي تجهش بالبكاء. أحسست ساعتها أنها تحبني حقاً وأني أصبحت وحيداً لولاها.
- وأنت ألم تكن تحبها؟ سألت.
- كنت أحب فيها جنونها وعدم اكتراثها، أتت إلى باريس مع مجموعة من الفتيات لتمضية عطلة الميلاد. التقينا بهن صدفة وكنا مجموعة شباب وسهرنا ليلتها وشربنا ورقصنا.. كانت أنغرد أجملهن، وطلبت منها أن أرسمها، فقبلت وأتت معي إلى غرفتي كانت شبقة حتى الجنون، فمارسنا الجنس بعنف ومتعة، لا أنكر ذلك، كنت أظن وقتها أن القصة ستنتهي بأيام قليلة يعود كل منا إلى حياته السابقة. بقيت معي كل تلك الفترة، لا تسأل عن شيء سوى ممارسة الجنس معي وهو أمر، حسبما تقول كان يعجبها.
- وأنت
- كانت فترة أحسست فيها بأنني أفجر كل جنوني وكبتي. لكنها، بعد أيام، رحلت. حزنت لرحيلها وفي نفس الوقت ارتحت من صخبها. لكنها لم تتركني، كانت تتصل بي هاتفياً مرات عديدة في اليوم الواحد لتقول لي إنها تحبني وتريد العودة. حاولت اقناعها بأن لا

تعود وبأنني أنتظرك أنت وبأنني أحبك ولا أريد التخلي عنك. لم تفهمني وعادت. كانت تريد أن تتعرف عليك لأنني كلمتها كثيراً عنك. لكنها كانت تحبني حقاً.

- ألهذا السبب كنت تقول لي أن أجن وأن أترك التفكير ولو للحظة واحدة. أعجبك الجنون إذن، ولم لا؟ فلكل شيء متعة معينة. وانا مع كل إنسان يجد نفسه أينما كان ولو كان ذلك في الجنون.
- كانت تتجاوب حقاً مع شيء مني يريد الانفلات والتدمير والخروج على كل المعايير والقياسات والفكر و... شكلت، إذا أردت، مرآة لوجه من وجوهي كنت أحاول الغاءه.
- إنه نوع من اللقاء وربما كان أفضل من اللقاءات الأخرى.
- في البداية نعم، ولكن ... فيما بعد حين يهدأ الجنون وتخفت العزيمة يتحول هذا اللقاء إلى فراق ويعيش كل فريق عزلته...
- لكنه يكون قد تمتع بالفترة السابقة.
- ويعيش الفترات اللاحقة على ذكرى ما لا يعود أبداً.
- لكن ثمرة هذا اللقاء تسد الفراغ على ما أظن، أليس الأولاد الآن هم الذين يملأون حياتكما؟
- نعم إلى حد كبير، لكن وجودهم هو الذي حدد حياتي. إني أحبهم لكنهم حرموني من التفكير في ذاتي وحرموني حرية التحرك لتحقيق ما كنت أعتقد أنه ذاتي. يأخذون كل وقتي حتى أصبحت الآن أقتنص أوقاتي اقتناصاً... لا أستطيع أن أكتب ولا أستطيع أن أرسم، كل همي انحصر في تأمين حياتهم التي هي مسؤوليتي.
- هذا حال كل الناس المتزوجين يعني حال كل الناس تقريباً. فحين يتزوج المر وينجب تصبح حياته ملك غيره. هذه حال الدنيا، أو انك تظن نفسك قادراً على امتلاك كل شيء؟
- لكن عالمهم غير عالمي، أجبتها، وهذا ما يزيد في عزلتي ويعمق وحدتي. نعيش في البيت وكأننا دوائر ثلاث، نلتقي أحياناً وغالباً ما نفترق، انغرد إلى مشاغلها والأولاد إلى همومهم وأنا إلى وحدتي، أراقب وأفرح وأحياناً أشقى لأنني تحولت إلى لا شيء، رجل عادي له زوجة وأولاد. ويزيد على ذلك أنني لست كالرجل العادي هناك بل اقل منه لأنني في غربة عن بلدي وعن ذاتي في نفس الوقت.
- لكل طريق مشقاتها، ويبدو أن كل اختيار هو بالنهاية فاشل لأنه يضع الإنسان أمام الشوق إلى ما لم يختر. لكن في نفس الوقت لكل طريق متعتها... وشقاؤها، أما حين نفكر بشكل أشمل وأوسع فنرى أن المتعة والشقاء سيان وكلاهما واحد، إنهما وجهان لعملة واحدة لا مفر للواحد منهما عن الآخر. وبالنتيجة نصل إلى الصفر الذي يساوي بين كل المعادلات.
- هل تؤاسينني أنت الآن؟

ضحكت وقالت: من يؤاسي من. فكلانا يدور ويبحث عن مكان ليحط رحاله ويرتاح.

- لماذا؟ ألم يكن باستطاعتنا...

لم تتركني أكمل كلامي، وقالت:

- كل منا جرب طريقاً مختلفة وها نحن أمام نتيجة شبه واحدة. ليست الطريق هي المهم، المهم هو من يسلك الطريق. هذا الشعور بالوحدة، يا عمر، لا يلغيه وسع الطريق أو ضيقها ولا تبدده حلاوة الطريق أو مرارتها. هذا الوعي للذات أمر مضن ولا يعانيه إلا من له عينان يريان الواقع كما هو وليس صورته البرانية. علينا أن ننسى مفهوم الزمن كي نسعد، لكن كيف ننساه وهو نسيج الحياة؟ إني أحسد من يستطيع عيش الحاضر فقط وينسى كل الأزمنة الأخرى. أما أنا فكل حاضر أراه ملبداً بغبار زواله. فقط الحاضر المؤلم يتمص وكأنه بلا زمن. هذه هي بنية الإنسان القلق فماذا تريد، يحاول الافلات من ذاته ويرمي نفسه في خضم الحياة، وبين الناس فما ينتج ذلك إلا تعميق الشعور بالعزلة لديه، فيعود وينكفئ من جديد لأن الوحدة المعزولة تبقى أرحم من الوحدة بين الجموع.

- لقد تغيرت كثيراً يا هبى ولم أعهد هذه المأساوية عندك قلت لها، أو أنني ما كنت أراها في السابق. حتى أنك لم تظهريها في لقاءتنا الأخيرة.
- كانت في السابق، لكن الوهم كان أكبر منها. كنت أظن بأننا نستطيع تغيير الأشياء والناس بمجرد اظهار الواقع على حقيقته. كنت أظن أن مجرد البرهنة على صحة أو خطأ شيء ما يكفي لتغييره أو المحافظة عليه، لكن ويا للأسف.

وصمتت.

- وأين أصبحت مع تحرير المرأة؟ سألتها.
- إنه من الأمور التي خذلتني. يبدو أن التحرر أمر فردي في هذا البلد حيث من غير الممكن القيام بعمل جماعي صحيح. وهكذا قررت الانفصال بعد أن عزلوني... لم يعجبهم صدقي فقرروا اكمال الطريق بدوني... وأنا من جهتي قررت انهم على خطأ وأكملت الطريق وحدي. ثم إني لم أعد مقتنعة بضرورة التحرير هذا. فالمرأة كما أراها تستعبد الرجل وهو مرتاح لذلك فلماذا التغيير؟
- كيف ؟ ذلك؟ سألتها.
- إن النساء اللواتي أردن التحرر ومارسنه هن اليوم في موقع صعب إذ انهن يقمن بدور الرجل ودور المرأة معا. بينما اللواتي بقين كما كن بدون أن يحاولن التحرر هن الرابحات لأنهن يستغللن أزواجهن ويمارسن ما يردن. وهنا أرى أنه يجب النظر إلى الموضوع من زاوية مختلفة عن الزاوية السابقة. ليس هناك من امرأة بشكل مطلق: خذ نساء الطبقات المرتاحة والثرية، المرأة في هذه الطبقات أو الفئات هي بنظري مرتاحة لا تحتاج إلى التحرر ولا تطالب به وأفهم ذلك، فهي تعيش في بيوت مريحة وعندها الخدم وكل وسائل تأمين الحياة والاستجمام والبطر. وكل ذلك يؤمنه الزوج. فماذا يتعبها هذه المرأة؟ وماذا ينقصها؟ أن تعمل في السياسة وأن يكون لها الحق في التدخل في الأمور العامة؟ إنها حاصلة على كل ما تريد، وغالباً ما ينصاع زوجها لميولها حتى في السياسة. وإذا لم يفعل فهو يدفع الثمن غالباً إذ أنه باستطاعتها أن تدفعه الثمن غالباً، امرأة كهذه ما لها وللتحرر. أتتحرر لتشقي وتقوم بممارسة عملية الاستقلال التي لا توفر لها ما يوفره لها زوجها؟ إن لديها كل شيء وإن تذمرت فهي تتذمر من كثرة الراحة التي غالباً ما ترهق أعصابها ويصبح السفر وصرف المال على الملابس ووسائل الزينة و... من ضرورات إعادة أعصابها إلى راحتها. هذه المرأة لا تحتاج إلى أكثر مما هي فيه وعليه.

أما في الطبقات والفئات الفقيرة فالأمر يختلف، إذ أن على المرأة أن تعمل كي تحصل مع زوجها ضرورات الحياة. هذه المرأة مظلومة لأنها تقوم بعمل مزدوج. تعمل خارج البيت مثل الرجل وتعود إلى البيت لتعمل أيضاً حيث زوجها يرتاح. فإذا تمردت المرأة في هذه الحالة أفهمها. لكن ما العمل؟ فإذا تمردت دب الخلاف بينها وبين زوجها وأصبحت حياتهما جحيماً وإن سكتت فيكون ذلك على حسابها وحساب أعصابها وحياتها وشبابها... فتحاول اللجوء إلى الجمعيات النسائية القائمة او ما يسمى بالحركات النسائية عندنا هنا والتي تطالب بتحرير المرأة وإقرار حقوقها. فتأتي المطالب غير ما تريد هذه المرأة المتعبة. تطالب هذه الجمعيات بالمساواة في العمل وتطالب بالتدخل في القرار العام. وتطالب بمناصب إدارية أو سياسية... فما هم مثل هذه المرأة من هذه المطالب؟ الحق بالعمل حاصلة عليه بل هو واجبها وضرورة لها. أما المطالب الأخرى فإن تحققت فليس لها نصيب فيها وإن لم تتحقق بقيت على حالها. قليلات جداً هن اللواتي يخرجن عن هذه اللعبة التي هي كالحلقة المفرغة ولكنها تدوم وتسير الحياة غير آبهة بتعب فلانة أو براحة فلانة وتسير على جسديهما معاً بوتائر مختلفة، صحيح. لكنها تسير.

- لكن لماذا اخترت أنت الطريق الصعب؟ سألتها، كان لديك كل ما تريدين من وسائل الراحة وكان باستطاعتك أن تمارسي حياتك كما تشائين وأن تستغلي الرجل تماماً كالنموذج الذي تكلمت عنه ومع ذلك...
- ومع ذلك، اخترت ما كنت مقتنعة به... يبدو أن هناك أشخاصاً، رجالاً كانوا أم نساء يرون تفاهة الأشياء البرانية ولا يجدون السلم إلا مع ذواتهم. فيقررون السلم ويعتزلون ويقتصر نشاطهم على تأمين الحد الأدنى من العيش كي لا يكونوا عالة على أحد ويكتفون، لأن حالة السلم هذه تغنيهم عن كل ثروات الأرض ونضالاتها وحروبها ومشاكلها...
- وما الدور الذي يقوم به مثل هؤلاء الأشخاص؟
- أمن الضروري أن يكون لهم دور؟ ألا يكفي أنهم لا يضايقون أحداً ولا يتطفلون على أحد ولا يفرضون شيئاً على أحد؟
- ولكن إذا عممنا نمط تفكيرك هذا لما استمرت الحياة ولما عاد أحد ينجب... ألا تدركين إن ما تقومين به هو إيقاف للحياة؟ سألتها.
- ولماذا التعميم في هذا المجال. اترك لكل فرد أن يقرر ما يشاء ولا تخف على الحياة. فهؤلاء الأشخاص قلة لا تؤثر في مسار الأرض. إنهم يعون تماماً أن عملية الانجاب وإيجاد الورثة على هذه الأرض نوع من اللعب والتسلية. يعلمون جيداً أن الولد يأتي من لحظة جنون أو لحظة متعة بين ذكر وأنثى لا يدري ما سبقها من زمن ولا ما يعقبها من زمن، إنها لحظة بين لا متناهيين ليس إلا.
- ولكن الأرض يحكمها قانون التكاثر، كما فهمت منك سابقاً وهذا هو الطبيعي، وما تقولينه الآن يلغي هذا القانون. ألا ترين هنا، أنك متناقضة مع نفسك؟
- متناقضة مع نفسي؟ ربما، أجابت، ولكني أفهم أن "الطبيعي" هو كل ما هو موجود حتى ولو شذ عن القانون. لأن قصة القانون هي قصة عدد ليس إلا وهنا علينا التمييز بين مفهومين: الطبيعي والقاعدي Le naturel et le normal كل شيء هو طبيعي أما القاعدي فهو الذي يستقطب العدد الأكبر من أمر ما. خذ الجنس مثلاً، فالقاعدة تقول بأنه يتم بين ذكر وأنثى هذا هو القاعدة Le normal. أما الجنس الذي يقام بين ذكرين أو انثيين فهو خارج القاعدة فهو anormal ولكنه طبيعي وإلا لما كان قد حصل. فهو ليس لا طبيعياً anaturel. الطبيعة تحتوي كل التناقضات ولا احد يخرج عليها، إنها اوسع من كل تناقضات الأفراد بينهم وبين ذواتهم وبينهم وبين سواهم.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

- الطبيعة، يا عمر، لا أقصد بها الأرض فقط. أقصد بها الكون كله. وما الأرض في هذا الكون إلا حبة رمل ربما. أو أقل. وإذا كانت كل الأرض التي نتناحر عليها ليس إلا حبة رمل فما الفرد إذاً وما كل ما يقوم به؟
- إنك تدكين كل شيء بنظرتك هذه وهذا أمر فظيع ولا أرى نتيجة له إلا الانتحار. قلت لها.
- ربما، أجابت، والبعض يلجأون إليه، وهؤلاء لا يعرفون فن اللعب. يفقدون كل رابط بالخارج وترعبهم الوحدة فينهون حياتهم. لكن من يعرف أن يدجن وحدته ويمارس اللعب معها فهو يتسلى حتى يتعب فتأتي النهاية لوحدها، والفارق بين الاثنين هو فقط فترة زمنية لا قيمة لها. ما الفارق بين الذي ينتحر وبين الذي يموت في وقته كما يقال؟ إنه فارق زمني بسيط. والذي ينتحر هو الذي لا يستطيع أن يفلت ولو للحظة من مفهوم الزمن فهو يعتقد في مرحلة العذاب، إنه لن يموت وبأن عذابه بالتالي لا نهاية له ولهذا السبب يقرر إنهاءه بنفسه. لكن من يرى الأمور على حقيقتها فهو لا ينتحر لأن الأمر لا يستحق ذلك هذا من جهة، ومن جهة ثانية لأن رؤية الأشياء هكذا على حقيقتها لا ترعبه بل تحوله إلى كائن هادئ

ومسالم، أي أنه يصل إلى هذا الصفاء أو الغبطة التي نسميها Sérénité وحينها يمر الزمن بالقرب منه وليس فيه وعليه حتى ولو أنه يمر عبر جسده.

- إذاً فهو يتحول إلى كائن هامشي لا لون له ولا طعم.
- وهل تعتقد أن في الأمر عيباً وذلاً؟ لا تعتقد ذلك. أن تعيش هامشيتك يعني أن تعيش حريتك والأمر أحياناً أصعب من النضال الذي مارسناه سابقاً.
- مع ذلك نظل هامشيين وخارج الأطر.
- وما نفع الفرد إذا ربح العالم ونسي نفسه؟ بينما إذا ربح نفسه وتجاهل العالم يكون قد حقن ولو جزءاً يسيراً من السعادة؟
- ممكن، ولكن ماذا تقصدين بأن يعيش الإنسان هامشيته؟ ما أفهمه انا من ذلك هو أن يضع الإنسان نفسه جانباً ويخرج من المجتمع ليعيش معزولاً وهل هذا ممكن؟
- لا. لا أقصد ذلك. أن يعزل الإنسان نفسه تماماً هو أمر شبه مستحيل لأنه حتى ولو أراد ذلك فلا يفسح له بالمجال أبداً، فما أقصده هو أن ينتقل الإنسان من حالة الحماس إلى حالة اللامبالاة. يعني أن يروض نفسه على عدم الاكتراث لكل ما هو خارجه.
- وهل هذا ممكن؟ سألتها.
- إنه ممكن برأيي. كلنا نبدأ بالدهشة، وبعدها ننتقل إلى الحماس وهذا الأخير هو الذي يحرك حياة الإنسان اجمالاً. فمنهم من يتحمس لقضية ومنهم من يتحمس لجمع المال ومنهم من يتحمس للنضال ومنهم من يتحمس للسلطة... قليلون هم الذين يتخطون هذه المرحلة ليصلوا إلى اللامبالاة التي، وبحسب ما أفهمها، تعني عقد الصلح مع الذات وعدم حرقها في مواضيع أخرى من تلك التي يتحمس لها الجميع أو الغالبية.
- ولكن، قلت وبحسب ما فهمت منك في حديثنا السابق أن هذا الخارج الذي تريدين اللامبالاة تجاهه يلاحق الشخص حتى في داخل وحدته..
- نعم إنه يلاحق، ولكن عليك أن لا تفتح له الباب أو أن تغلقه دونه، وهو غالباً ما يتخطى الباب المغلق، لأن الإنسان قبل أن يصل إلى اللامبالاة يكون قد مر في مراحل طبعته ودخلت مكوناتها في تكوينه. لكن عليه أن لا يعود يكترث لها والأمر ليس سهلاً، إن الاستقالة صعبة، هي عملية تطهر مستمر لكي يتحول المرء إلى مشاهد. وهذا يعني أن ينتقل من حلبة التمثيل إلى صالة المشاهدين و...
- يعني وبكل بساطة أن يتخلى عن دوره، سألها قبل أن تكمل.
- تعود دوماً إلى الدور، ماذا يعني أن يقوم الإنسان بدوره؟ أترى أن المستقبل من النضال المفروض علينا ومن الحرب المستمر بين الجماعات والأفراد هو بلا دور؟ إنه يلعب الدور الأمثل بنظري، فهو لا يتطفل على أحد ولا يقتل أحد ولا يساهم في أي حرب التي هي ضد الإنسان مهما كانت أهدافها. إنه الشاهد على اللعبة الكبيرة التي نسميها المجتمع الإنساني. فهي لعبة تتعاقب فيها المآسي والمهازل ووقود الاثنين معاً هم القائمون بهما.
- هذه هي الحياة، أجبتها، وهل تستطيعين تغييرها؟ فقط من لعبة لا أستسيغها. ظننت في فترة معينة من حياتي أن التغيير ممكن لكني، وبعد التجربة اكتشفت أن لكل فرد خلاصه الخاص وعليه أن يحققه كما يستطيع وكما يراه. فحين أقول لك أن حياة الناس مأساة – مهزلة، فأنا لا أقيم ولا أعطي حكماً، فقط أقول ما أرى ولغيري كل الحق في أن يرى العكس ويعمل على أساسه. أنا لا أفرض شيئاً، فقط أحاول أن لا أمثل على نفسي أولاً ولا على الآخرين بالتالي.
- لم أعد أعرف يا هبى إن كنت حقاً أتابعك، أجبتها. أحياناً أجد هبى التي أعرفها منذ خمسة عشر عاماً، وأحياناً أراني أمام إنسان جديد لا أعرفه، فأين أنت؟

- الأمر في غاية البساطة يا عمر، قناعاتي لم تتغير بشكل أساسي وهنا تجدني لكن رؤيتي للأشياء تغيرت وبالتالي طريقتي لعلاجها تغيرت وهنا اظنك لا تعود تجدني. بكل بساطة أقول لك من جديد إن ما توصلت إليه هو أن يخلص كل إنسان نفسه فيرتاح ويربح. وهنا أراني غير نادمة اطلاقاص على عدم الانجاب، فلو فعلت لكانت زادت روابطي ولكل من الصعب على أن أتخلص منها كما أحاول الآن. هذا من جهتي أما من جهة الأولاد فلكنت ساهمت في معاناة جديدة لكائنات جدد لم يكن لهم الخيار في ذلك... لكن اللعبة مستمرة ولا نملك تجاهها إلا السخرية.
- وهل نسيت ابنتك أو انك...

وقبل أن أكمل أجابت وكأنها أيضاً تفكر في نفس الموضوع.

- تماما لا. لم أنسها. لكني لست مسؤولة عن انجابها بل أشعر أني مسؤولة عن وجودها لأنها عاجزة وفي أغلب الأحيان شبه وحيدة. إنها لا تطيق الوحدة ولها مطالب أحياناً أجدها كثيرة ولكنها غير واعية تماماً لوضعها. فهي ككل الآخرين تعتقد إنها على صواب وربما كان الأمر كذلك من وجهة نظرها. أما عملي معها فينحصر في إخراجها من وحدتها لأنها لا تشعر بالحاجة إلي إلا حن تعاني منها. وهي ككل بنت تحاول أن تكون أمها أو مثل أمها بدون أن تدرك تماماً فارق السن والتجربة وميادين الحياة المختلفة ونوعية العلاقات المختلفة. ولكن على الأم أن تفهم البنت وليس العكس. وهذا ما أفعله وأحاول قدر المستطاع أن أوفّق بين ما أصبو إليه ووضعها. كانت في البداية عبئاً ثقيلاً أشعر به بالحاح ولكنها الآن لا تشكل هذا العبء لأنني أدخلتها في لعبتي واكتشفت أنني كلما تصالحت مع ذاتي كلما قبلتها أكثر وكلما رأيت أن مشاكلها بدأت تصغر، لا لأنها تتغير أو أنها تغيرت بل لأني أنا تغيرت وبدأت أخلى تدريجياً عن الحماس الماضي الذي لا نتيجة له إلا التعب.
- صمتت قليلاً ثم تابعت:
- كانت تقتحم وحدتي وحياتي لكنها مع الوقت لم تعد تقدر على ذلك لأني حصّنت هذه الوحدة فأصبح اقتحامها لها فاشلاً بالنسبة لي على الأقل وليس بالنسبة لها. فحين تكتشف يا عمر، أن الإنسان كائن تعيس وتعيس جداً كأصغر حشرة في هذا الكون لا ينتابك إلا الشعور بتعزيز لامبالاتك الساخرة.
- ألا تلاحظين أنك تصلين إلى العدمية المطلقة يا هبى؟ سألتها.
- ربما. وما المانع من ذلك؟ أجابت وهل الوصول إلى عكسها أفضل؟ لكني أسألك بدوري: هل الوصول إلى الصلح مع الذات هو العدمية؟
- لا. لكن نتائجه كما تعرضينها هي العدمية برأيي.
- وهل أن مسار الإنسان، ومهما فعل في حياته، سوى الوصول إلى هذا العدم؟
- هل تعنين الموت؟
- نعم. أجابت، ماذا غير الموت كنتيجة.
- وماذا بعد الموت؟
- هنا، تبقى الذاكرة، أجابت، أما هناك، إذا كان من هناك، فلا أدري ولا أظن أن أحداً يدري.
- وماذا تفعلين بكل التعاليم التي تتكلم عن حياة أخرى؟ سألتها.
- تعني الأديان؟ أجابت، وما يتبع ذلك من مفهومي الخير والشر... والثواب والعقاب و... حقاً لست أدري... ولكن حين ترى يا عمر أن الإنسان كتلة من مواد كيميائية وأن تصرفاته هي نتيجة تفاعل هذه المواد، ألا ينتابك الشك في مفهومي الخير والشر وبالتالي في كل المفاهيم اللاحقة؟ حين يقول لك العلم مثلاً أن زيادة أو نقصان مادة معينة في جسم الإنسان تغير سلوكه، ألا تعتقد حينها أن القدر هو الذي يحرك الناس بدون أن يدروا أو قل للدقة الصدفة هي التي تحركهم؟

- لا أدري حقاً، لكن هذه التركيبة التي تلعب الصدفة في تكوينها والتي هي الإنسان الفرد كما تقولين، ألا ترين أن هذه التعاليم أتت لكي يجد فيها هذا الفرد خلاصه وليتبعها لي يستطيع التحكم بهذه الصدفة التي أوجدته؟
- لا أنكر ذلك. أجابت، هذا هو دورها وهي بالتالي عزاء الإنسان وأمله. ضابطة في سلوكه وفي تفكيره... إذا ألغيت الأفق فأين محط النظر؟ وهل يعود هناك من نظر؟ إنها الضرورة التي تتحكم بهذه الصدفة الكبيرة... ولكن هل تعتقد، يا عمر، أن باري هذا الكون الشاسع قد حصر همه كله في هذا الكوكب الصغير الذي نعيش عليه نحن؟ ألا تعتقد أنه من الممكن جداً أن يكون قد أوجد عوالم كثيرة ومختلفة جداً عن عالمنا هذا وهل، يا ترى، تعاليمه لكائنات أخرى مختلفة عنا هي ذاتها تعاليمه لنا؟ ألا ترى أننا هنا كائنات أنانية نريد حصر كل فعل الله فينا نحن فقط ونحتكر كل عظمته لزجها بكليتها في مكان لا يشكل إلا جزءاً أقل من يسير من خلقه كله؟ ألا تراه في عظمته يسخر من هذا الكائن الذي يتصور في عماه أنه يستطيع أن يستقطب كل الله وكل تعاليمه؟ حين أصل، يا عمر، إلى هنا لا يعتريني إلا الرهبة والصمت ولا أعود أجد جدوى للكلام الذي مهما علا لا أعود أسمعه.

وصمتت

أتى الدكتور عيسى وأنقذ الموقف

- أنتم هنا، قال، لقد اكتمل النصاب هيا بنا.

ابتسمت هبى وقالت:

- أتى من يفهمني جيداً، فهيا إلى اللعب.
- الآن؟ سألت، إنها فترة الظهيرة ومعكم الليل بطوله.
- ما الفارق بين نهار ولي؟

لم أستطع مجاراتها وحاولت الاعتذار لأنني كنت متعباً فتركاني وذهبا.

ليتني لم أعد! هربت من ألم مربك ومتناقض وإذا بي أمام صفاء مؤلم!

ما لم يقله الراوي

كانوا في بداية السهرة حين طرق الباب

فتحته هبى فإذا بعمر

- أهلاً قالت له هل ما زلت هنا؟ ظننت أنك عدت بدون أن تراني وتودعني
- إني آت لذلك قال. ثم قدم لها مغلفاً كبيراً قرأت عليه:

إلى هبى :

"كتابة على حد سكين"

أو

"جئنا نحصد الريح"

- ما هذا؟ سألته
- اختاري العنوان الذي تريدينه، أجابها

فهمت ماذا يقصد وقالت له:

- كلاهما صح. لكني لا أحب الاستعارات ولهذا السبب اختار الإهداء، فهو حقيقي أكثر.
- عبثاً نحاول! فأنت معاندة حتى النهاية، قال.
- الآن ليس وقت نقاش، ادخل، ادخل لأعرفك على ابنتي إنها هنا.

دخلا، فسلم على والدتها وهاني اللذين كانا يلعبان بالورق، وفرحت أمها كثيراً حين قال لها أنها لم تتغير.

جلسوا وتحادثوا بمواضيع مختلفة وشربوا القهوة و...

وفي لحظة صمت، نظر عمر إلى هبى متسائلاً. فهمت قصده وقالت:

- لقد مضى على وفاة والدي سنتان تقريباً يا عمر هز برأسه وقال:
- الآن أستاذن. أنا مسافر غداً وعلي أن أرتب أشيائي الليلة. ودعهم ورافقته هبى إلى الباب، فسمعته يقول لنفسه: "ليتني أجد أماً لطفولتي الآتية".